رحلات السندباد



الرحلة السادسة

في جزيرة الأقزام

رحلات السندباد



الرحلة السادسة

في جزيرة الأقزام

اعداد ورسوم
رفعت عفيفي

الدار النموذجية
للطباعة والنشر



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
مفرق جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

1436 هـ - 2015

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com
موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com





مضى عامانِ عَلى عَودَتي مِنْ رِحلتي الخامِسَةِ. وكانَ الخليفةُ قدْ انتقلَ إلى رحمةِ آللهِ وآلتِ الخلافةُ مِنْ بعدِهِ إلى آبنِهِ ووليِّ عهْدِهِ زوجِ الأميرةِ الَّتي جئتُ بِها مِنْ بلادِها بناءً على طَلَبِ الخليفةِ الرَّاحِلِ. وظَلَلْتُ خلالَ هذينِ العامينِ أتردَّدُ دائماً على قَصْرِ الخِلافَةِ الَّذِي كانَتْ لِي فيهِ مكانَةٌ لا تُدانِيها مَكَانَة. فكنتُ الرجلَ الوحيدَ الَّذي يُمْكِنُ له رؤيةُ الخليفةِ الجديدِ وزوجتِهِ مِنْ غيرِ سِتْرٍ أو حِجَاب. فقَدْ كنتُ بمَثَابَةِ والدِها الَّذِي جَعَلَنِي وَكِيلاً عَنْه فِي زَوَاجِها.

ولمَّا كانَ والدُها يُقيمُ في مَمْلَكَتِهِ البعيدةِ فقدْ كانَتِ الأميرةُ تطلبُ منِّي دائماً أنْ أوَافِيَها بأخْبَارِهِ وأخبارِ عائِلَتِها عنْ طريقِ آلتُّجَّار الذينَ يسافرونَ إلى هذهِ البلادِ.

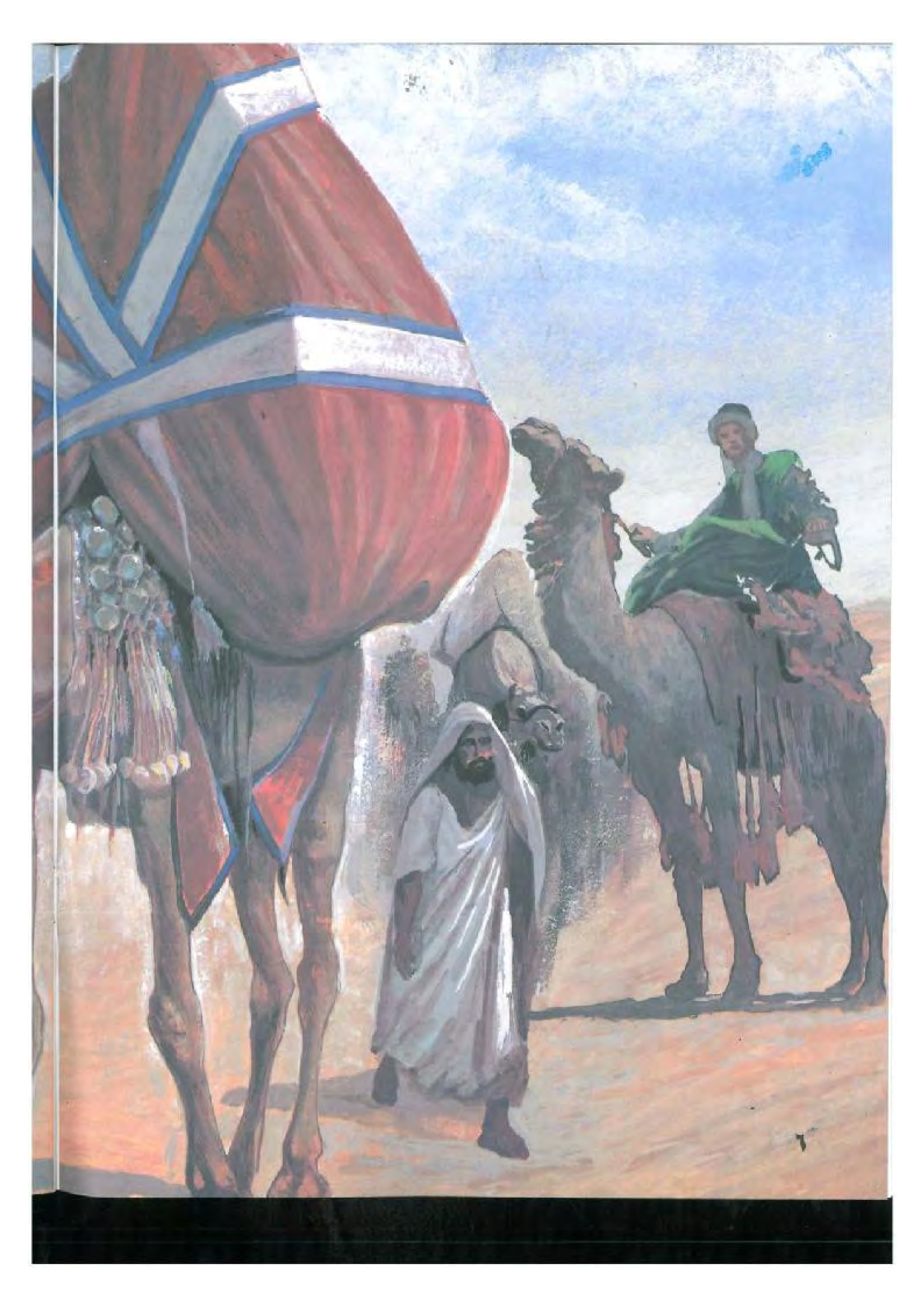
وذاتَ يومٍ وصلَتْنِي رسالةٌ مَعَ أحدِ آلتُّجَّارِ مِنْ أبيها وأُمِّها تُفيدُ بأنَّهُمَا يرغَبَانِ فِي زِيَارَةِ بغداد لِرُؤْيَةِ ابْنَتِهِما وزَوْجِها الخَليفَةِ. فأخَذْتُ الرسالةَ مِنْ فَوْرِي إلى قَصْرِ الخِلَافَةِ وأطلَعْتُ الخليفةَ عَلَيْها فَنَادَى على الأميرةِ زوجتِهِ وأطلَعَها هِيَ الأُخرى على مُحْتَوى الرسالةِ فظهَرَتِ السعادةُ على وجْهِهَا وسألَتِ الخَليفَةَ رأْيَهُ فأجابها بقولِهِ: «أهْلاً بِهِما في بلدِهِما، ومِنَ الآنِ ستزدانُ بغدادُ استعْدَاداً لاستقبالِهِما». ونظَرَ ناحِيَتِي وقالَ: «ستَكُونُ أنْتَ يا سندباد رسولَنا إليهما ومصَاحِباً لَهُما في رِحْلَتِهِما...» وانتابَتْني حيرةٌ شديدةٌ من هَوْلِ المفاجَأةِ وقلتُ فِي تَرَدُّد: - إنِّي يا مولاي كنتُ عاهَدْتُ نفْسي على عَدَمِ السَّفر. ولكِنِّي لا أسْتَطِيعُ أنْ أَرُدَّ لكَ طلباً أو أعْصِيَ لكَ أمراً. فتبسَّمَ الخليفةُ قائلاً: - ليسَ عِنْدي سِواكَ لهذَا الأمْرِ يا سندباد. وستَكُونُ لَهُمَا نِعْمَ الرَّفيق. وإذا لَمْ يَكُنْ هذا مِنْ أجْلِ خاطِري فَلْيَكُنْ مِنْ أجْلِ خَاطِرِ الأمِيرَةِ الَّتِي ستُنْجِبُ لَنَا عمَّا قَريبٍ مَنْ يَكُونُ وليَّ العَهْدِ ويرِثُ المُلْكَ مِنْ بَعْدي. ولَمْ يَكُنْ أمَامِي ما أُجِيبُ بِهِ إلا قَوْلي: - أطالَ آللّهُ بقاءَكَ يا مَوْلاي وأنَا طَوْعُ أمْرِكَ وأمْرِ الأميرَة.

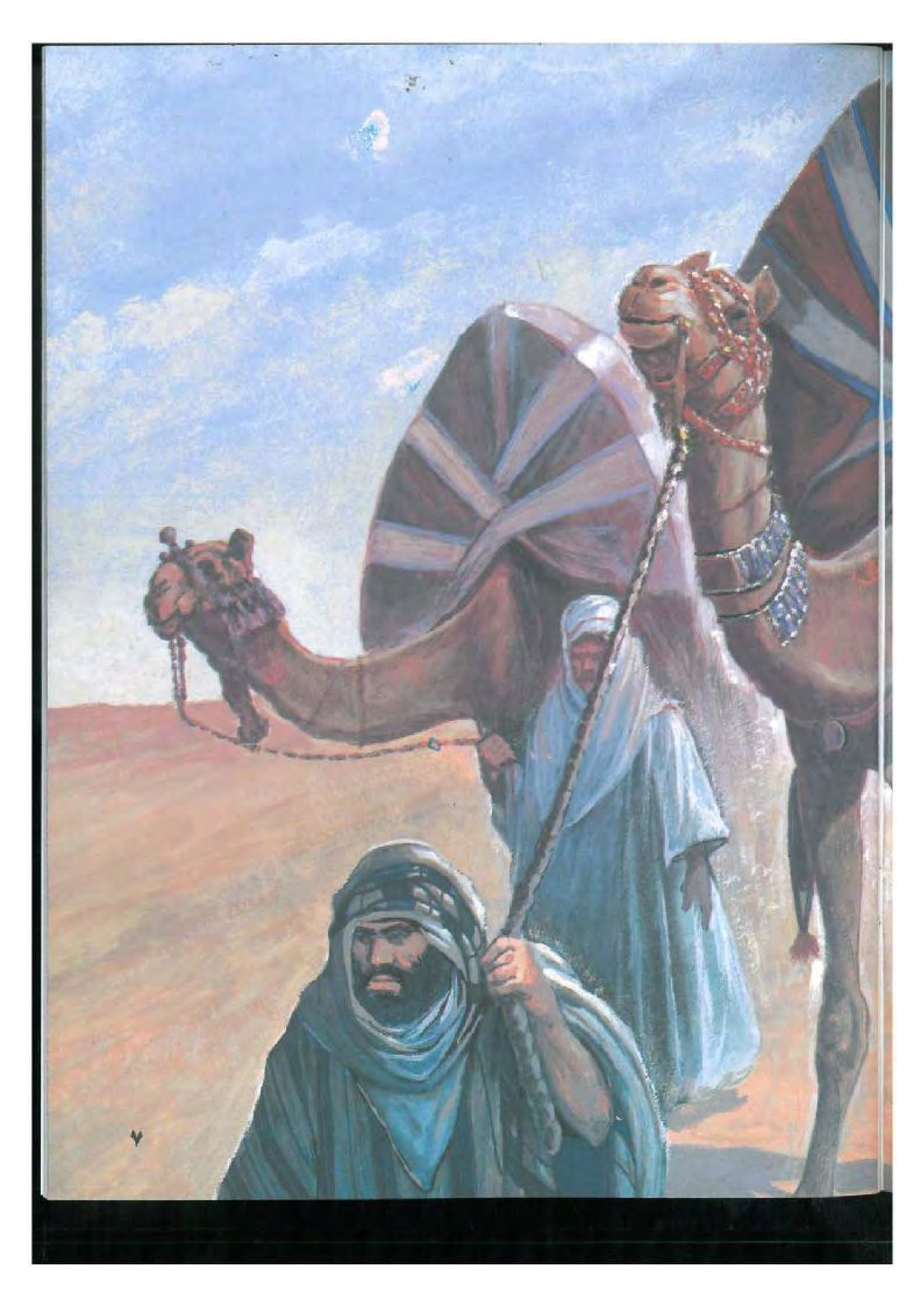
لم تمضِ أيامٌ قليلةٌ إلاَّ وَكنتُ قد جهَّزْتُ نَفْسي للسَّفَرِ بكلِّ ما يَلْزَمُ وتَوَجَّهْتُ إلى قصرِ الخِلاَفَةِ لتَوْديعِ الخَليفَةِ وزوجتِهِ اللَّذيْنِ تَمَنَّيا لِي رِحْلَةً سَعِيدَةً وعَوْدَةً حميدَة. وخَرَجْتُ فِي قافِلَةٍ كَبيرَةٍ تَحْمِلُ الكَثِيرَ مِنَ الهدَايا. وبَعْدَ عدَّةِ أيامٍ ظهرتْ لنا البصرة فدخَلْناها مَسَاءً.

أَوَيْتُ إلى خانٍ للمَبيت. وفي الصباح خرجْتُ منْهُ إلى المِينَاءِ حيثُ تقِفُ السفنُ راسِيَةً، بعضُها على وَشْكِ الرَّحيلِ والبَعْضُ الآخَرُ في انتظارٍ. ورأيتُ سفينةً كبيرةَ الحجْمِ قويَّةَ الصُّنْعِ، كثيرةَ الصَّوَارِي فصعدْتُ إلى سَطْحِها وقابَلْتُ رُبَّانَها الَّذِي كانَ ينْظرُ إلى الأفُقِ البَعيدِ في حَسْرَةٍ. فألقيتُ عليهِ السلامَ ويبدُو أنَّهُ فوجِىءَ بوُجُودِي، إلاَّ أنَّهُ رَدَّ السلامَ بأحْسَنَ منْهُ وسألني عمَّا أُريد. فقلتُ لَهُ: «إن لكَ سفينةً جميلةً وكبيرةً. فهلْ أنْتَ على وشكِ الرَّحيل؟»، فأجابَ الرَّجُلُ بأنَّهُ يَوَدُّ الرَّحيلَ ولٰكِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ. فقلتُ لَهُ: ـ ولماذا لا تَسْتَطيعُ؟ فقالَ الرجلُ: ـ لأنِّي لا أملِكُ مالاً أَسْتَطِيعُ أنْ أدْفَعَ مِنه أجْرَ البَحَّارَةِ أو أتزَوَّدَ مِنْهُ للرَّحِيل.

ولهٰذا فإنِّي هُنا حتَّى يأذَنَ اللَّهُ في أمْري بعْدَ أنْ فقدْتُ ما كانَ مَعِي مِنْ مال. فقُلْتُ لَهُ: ـ وكَمْ تحتاجُ مِنَ المَالِ؟ فأجابَ بِأنَّه يلزمُهُ ألْفانِ مِنَ الدَّنَانِير حتَّى يستطيعَ الرَّحِيل. فقلتُ لَهُ: ـ إنَّ المالَ مَعِي وما عَلَيْكَ الآنَ إلا أنْ تأْتِيَ بالبَحَّارَةِ وما تَراهُ مِنَ الزَّادِ على أنْ تَذْهَبَ بِي حَيْثُ أريدُ ثُمَّ تَعُودُ بِي. فقال الرجُلُ: ـ وإلى أيْنَ تُرِيدُ أنْ تَذْهَبَ؟ قلتُ: ـ إلى بلَادِ «السِّنْدِ سِتان» لِنَبْقَى هُناك شَهْراً ثُمَّ نَعُود؛ فقالَ الرَّجُلُ: أَسْتَطِيعُ أن آخُذَكَ إلَيْها. لٰكِنِّي لا أستطيعُ العَوْدَةَ إلى هُنا. فإنِّي أودُّ أنْ أسْتَقِرَّ في بِلَادِي بَعْدَ أنْ تَقَدَّمَ بِي العُمْرُ ولَمْ أعُدْ قادِراً عَلى كَثْرَةِ الأسْفَار.

فقلْتُ لَهُ: ـ وأيْنَ بلادُكَ؟ فقال: ـ هِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ الجزيرَةِ الَّتِي تُرِيدُها.



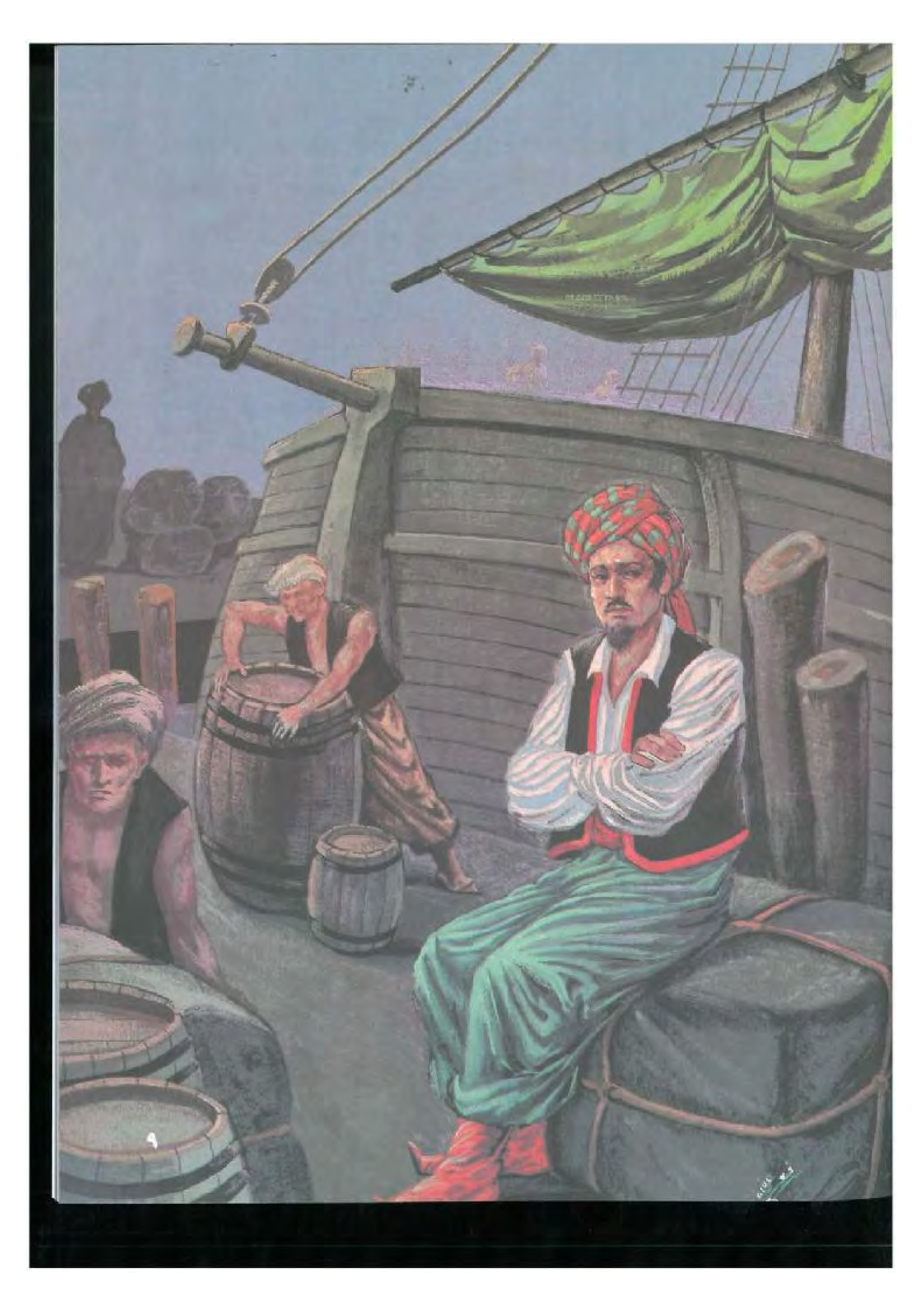


فقلْتُ لَهُ: لا بَأْسَ مِنْ أَنْ تُوصِلَني ثُمَّ أَعودُ في سَفِينَةٍ أُخرى. وقدَّمْتُ إلى الرَّجُلِ صُرَّتَيْنِ مِنَ المالِ فِي كلٍّ منْهُما ألفُ دِينَارٍ وكانَ هٰذا مَبْلَغاً كبيراً يَكْفي لِشِرَاءِ السفينةِ كُلِّها. لٰكِنّي فَعَلْتُ هٰذا إشْفاقاً على الرَّجُلِ الذي كانَ يَبْدُو مُتْعَباً، وحَزِيناً لِبُعْدِهِ عَنْ بَلَدِهِ.

فَرِحَ الرَّجُلُ بِمَا أعْطَيْتُهُ ونَزَلَ مِنْ فَوْرِهِ للبَحْثِ عنِ ٱلبَحَّارَةِ بَيْنَما تَوَجَّهْتُ أنا إلى الخَانِ حيثُ كانَتْ قَافِلَتِي مُنْتَظِرَةً هُناكَ وأَمَرْتُ ٱلحَمَّالِينَ بِأَنْ يضَعُوا الأحْمالَ فَوْقَ ٱلمَرْكَبِ. وعند الظهيرةِ حَضَرَ الرُّبَّانُ ومَعَهُ البحارةُ حامِلِينَ كلَّ ما يَلْزَمُ مِنَ الزَّادِ والعِتَادِ وصَعِدْنا جَمِيعاً إلَى ظَهْرِ المرْكَبِ وجَاءَني الرُّبّانُ مُمْسكاً ورَقَةً بِيَدِهِ عَلَيْهَا أخْتَامٌ وقَدَّمَها إليَّ باسِماً وقال: ـ خُذْ هٰذهِ الورقَةَ أيُّها الرجلُ الكَريمُ. وحَلالٌ عليكَ المَرْكَبُ ومَنْ فِيهِ. فَتَعَجَّبْتُ مِنْ ذٰلِكَ وقُلْتُ لَهُ: ولِماذا تَفْعَلُ هذا وأنا لمْ أطلُبْ مِنْكَ شيْئاً مُقَابِلَ المَالِ؟ فقالَ: ـ لَقَدْ رَفَضَ ٱلبَحَّارَةُ أنْ يَعْمَلُوا عَلَى هٰذا ٱلمَرْكَبِ طالَما أنَّهُمْ لنْ يعودوا عَلَيْه. ولذلِكَ لمْ أجِدْ أمَامي إلاَّ أنْ أضْمَنَ لَهُمُ ٱلعَوْدَةَ ولٰكِنْ بِدُونِي. فذَهَبْتُ إلى قاضِي البصرةِ وكَتَبْتُ هذهِ الورقَةَ الَّتِي هِيَ بَيْعٌ للسفينةِ مِنِّي إليكَ وجَعَلْتُهُ يوقِّعُ عَلَيْها بأخْتامِه. فهِيَ منذُ الآنَ مُلْكٌ لَكَ وأنَا أجيرٌ عندَكَ على أنْ تُوصِلَنِي إلى بِلاَدِي. فقُلْتُ للرَّجُلِ: ـ لكَ عليَّ هذا، وجَزاكَ ٱللّهُ خَيْراً.

قَبْلَ أنْ تَتوارَى الشمسُ وراءَ الأُفُقِ كَانَ المَرْكَبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ ميناءِ البصرة تَدْفَعُهُ فَوْقَ ٱلماءِ رِيحٌ طَيِّبَةٌ فَوَقَفْتُ أرْقُبُ ٱلشَّاطِئَ وهُوَ يبتعِدُ ويخْتَفِي معَ ٱخْتفاءِ قُرْصِ الشمسِ الذهبيةِ وجَالَتْ بِخَاطِرِي أفكارٌ كثيرةٌ هِيَ مزيجٌ مِنَ ٱلنَّشْوَةِ والرَّهْبَةِ. فقدْ كُنْتُ سَعيداً لِعَوْدَتي إلى البَحْرِ مَرَّةً أخرى. أما رهْبَتِي فقَدْ كانَتْ مِنَ المَجْهُولِ الَّذي يَنْتَظِرُنا.

أسْدَلَ الليلُ سِتارَهُ على الكونِ فأويتُ إلى فِراشي وأسْلَمْتُ نَفْسي لِنَوْمٍ عميقٍ



حتّى الصباح. وفي اليوم التالي كانَ كلُّ شيْءٍ هادئاً وكلُّ فردٍ مِنَ البحّارةِ في مكانِهِ يؤدّي عملَهُ ولَمْ يَحْدُثْ ما يُعكِّرُ صَفْوَنا.

وهكذا كانَ الحالُ بِعِدَّةِ أيّامٍ حتّى لاحَتْ لَنا على البُعْدِ جزيرةٌ اتَّجَهْنا إليها ونَزَلْنا عليها فرأيْناها عامِرَةً بالسكّانِ ومكَثْنا على شاطِئِها بضْعَةَ أيّامٍ ثُمَّ رحَلْنا عَنْها بَعْدَ أنْ تزوَّدْنا مِنْها بِما يَلْزَمُ. وبعْدَ يومَيْنِ لاحتْ لَنا جَزيرةٌ أُخرى مَكَثْنا فيها أيضاً لِبِضْعَةِ أيّامٍ ثُمَّ رَحَلْنا، وكانَ قدْ مضَى على سفَرِنا مُنْذُ خُروجِنا مِنَ البصرةِ حوالَيْ شَهْرَيْنِ. وفي مساءِ أحَدِ الأيّامِ فوجِئْتُ بالرُّبّانِ مُتْعَباً وقدْ نالَ منْهُ الإعْياءُ وظَهَرَ عَلَيْهِ المَرَضُ ولمْ يَعُدْ قادراً على قِيادَةِ المَرْكَبِ. فأخَذْتُ مكانَهُ وطلَبْتُ إليْهِ أنْ يَسْتَريحَ في فِراشِهِ. ووقَفْتُ أنا على الدَّفَّةِ ومَضى وقْتٌ قصيرٌ فحَضَرَ أحَدُ البحّارةِ يقولُ لي: - إنَّ الرُّبّانَ في حالَةٍ سيِّئةٍ وهُوَ يَطْلُبُني. فتَرَكْتُ مَكاني لشَخْصٍ آخَرَ وأسْرَعْتُ إلى الرَّجُلِ فرأَيْتُهُ في حالَةٍ مِنَ الإعْياءِ وكأنَّهُ يحْتَضِرُ. ولمّا رآني قالَ: - إستَمِعْ لِما سأقولُهُ لكَ الآنَ. ثُمَّ أشارَ إلى صُنْدُوقٍ صَغيرٍ فأحْضَرْتُه إلَيْهِ. فقالَ: - خذْ هذا الصندوقَ، في داخِلِهِ ورقةٌ رسَمْتُ فيها خريطةً لِكَنْزٍ مَدْفُونٍ في مَنْزِلي. ولَيْسَ لي في الدُّنْيا مِنْ وَريثٍ. وأنْتَ رجلٌ طَيِّبٌ صاحِبُ مُروءَةٍ. فخُذْ كلَّ ما تَجِدُهُ عِنْدي وهُوَ مِلْكٌ لكَ، وبارَكَ اللّهُ لكَ فيهِ. ولَمْ يَزِدِ الرجُلُ على قولِه بكَلِمَةٍ حتّى فاضَتْ روحُهُ إلى بارِئِها. وكانَ يقِفُ بجِواري أحَدُ البَحّارةِ يستَمِعُ إلى كلامِ الرَّجُلِ فأسْرَعَ يُخْبِرُ زُملاءَهُ بمَوْتِهِ بينَما جلَسْتُ أنا بِجوارِهِ حَزيناً أتَعَجَّبُ لِحالِ الدُّنْيا. فقَدْ كانَ الرجُلُ يَتَمنّى الرَّحيلَ عَنِ البَصْرَةِ ويَنْشُدُ العَوْدَةَ إلى بِلادِهِ لِيَسْتَريحَ ويَنْعَمَ بِكَنْزِهِ. ولكِنَّ إرادةَ اللّهِ تَعالَى فَوْقَ ما نُريدُ ونَتَمَنّى. وها هُوَ قَدْ غادَرَ الدُّنْيا مُفْلِساً ولَمْ يأخُذْ مَعَهُ شَيْئاً، وسُبْحانَ مَنْ لَهُ الدَّوامُ وهُوَ قادِرٌ عَلى كُلِّ شَيْءٍ.

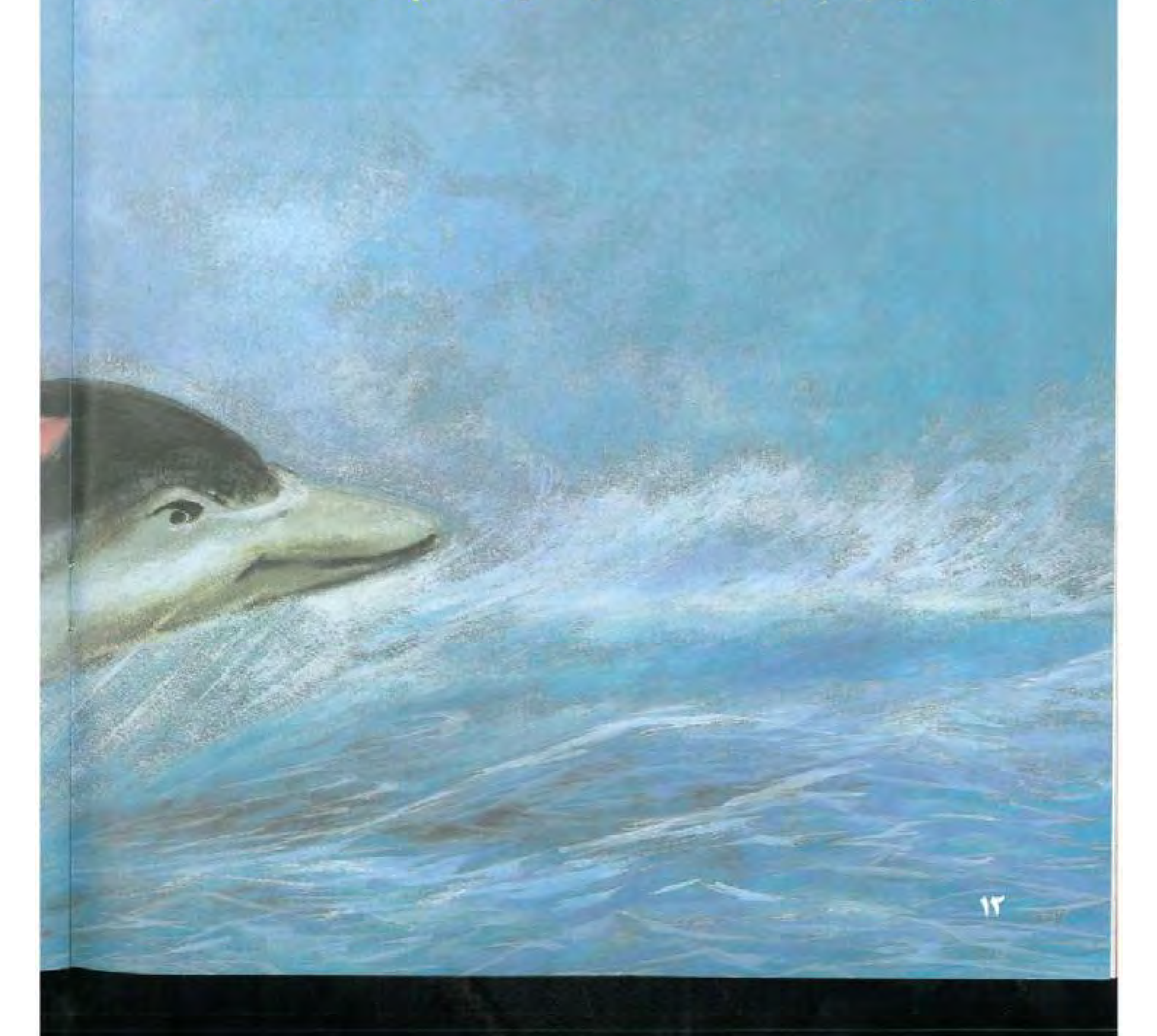
في صباحِ اليومِ التّالي كنّا قَدْ جَهَّزْنا الرجلَ وصعِدْنا بجُثْمانِهِ إلى ظَهْرِ المَرْكَبِ ثُمَّ صَلَّيْنا عَلَيْهِ وألْقَيْنا بِهِ إلى البَحْرِ كَما هُوَ مُتَّبَعٌ في مِثْلِ هٰذِهِ الظُّروفِ. إذ لا يَصِحُّ أن يَبْقَى

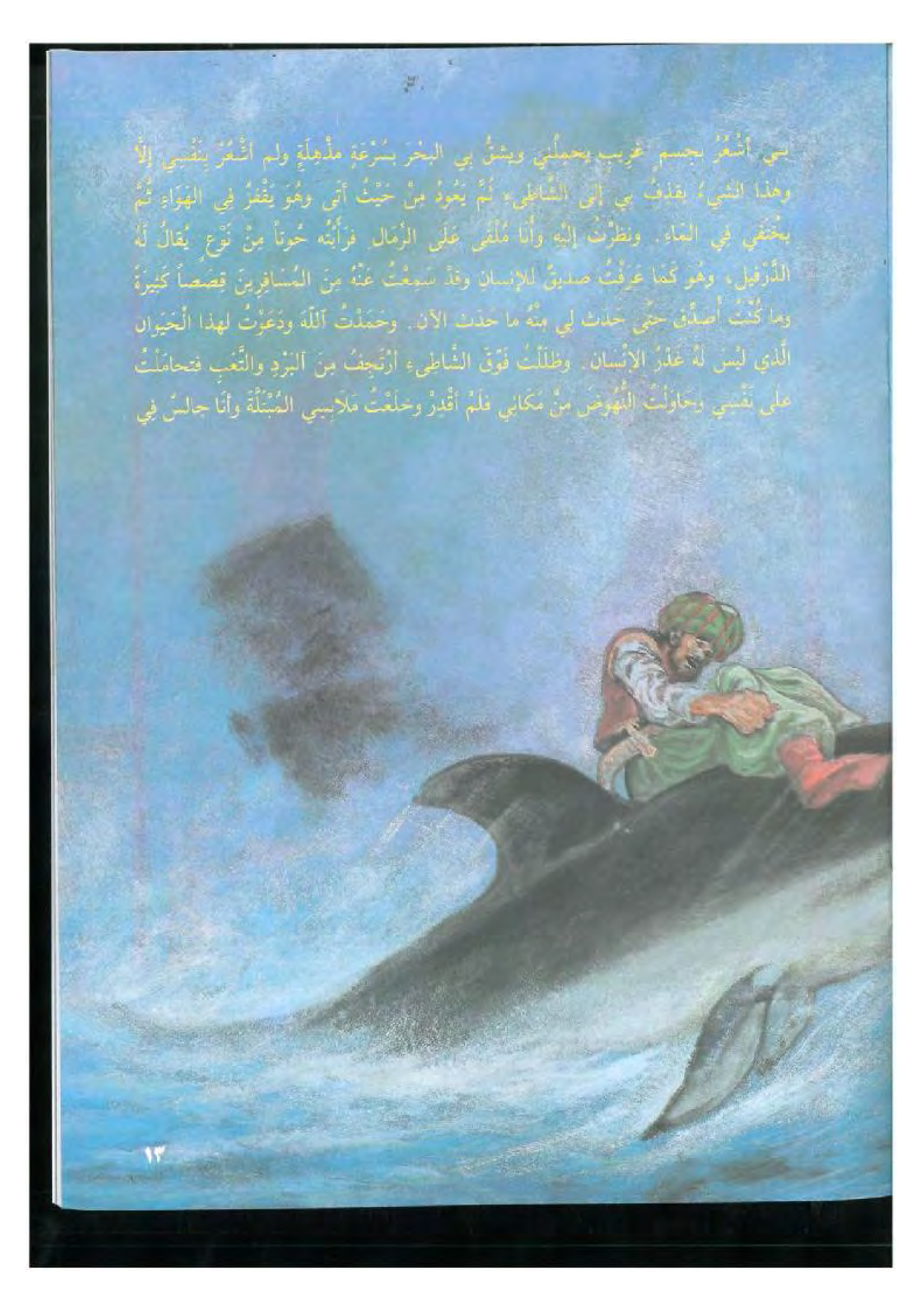
جُثْمانُهُ فَيَتَعَفَّنَ وَيَنْشُرَ وَباءً. وسَالَتْ من عَيْنِي الدُّمُوعُ وأَنَا أَرَى جَسَدَهُ يَغُوصُ إلى القَاعِ لِيَكُونَ مُسْتَقَرَّهُ ومَثْوَاهُ الأَخِيرَ، أو يَكُونَ طَعَاماً للأَسْمَاكِ والحِيتَانِ. ونَظَرْتُ إلى ٱلْبَحَّارَةِ فَمَا رَأَيْتُ في وُجُوهِهِمْ أَيَّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الحُزْنِ. بَلْ عَلَى العَكْسِ رُبَّما كانُوا يَبْدُونَ سُعَداءَ. ورُبَّما يَكُونُونَ قد صَادَفُوا هٰذا الأَمْرَ كَثِيراً فَغَدَتْ قُلُوبُهُمْ بِلاَ عَاطِفَةٍ.

مضَى النهارُ بكامِلِهِ وأَنا حزينٌ وفقَدْتُ شَهِيَّتِي للطَّعامِ والشَّرابِ واستَلْقَيْتُ عَلى فِراشِي مَهْمُوماً أفكِّرُ فِي ما يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَهُ بِهٰذا الصُّنْدُوقِ. وهَلْ أَذْهَبُ إلى حَيْثُ أُرِيدُ أَوَّلاً أمْ أَذْهَبُ إلى بَلْدَةِ الرَّجُلِ لأُخْرِجَ كَنْزَهُ؟ لٰكِنِّي قُلْتُ فِي نَفْسِي إنِّي لَسْتُ بِحَاجَةٍ إلَى مَالٍ أَوْ كُنُوزٍ. ولَنْ أَفْعَلَ إلاَّ مَا كُنْتُ عَزَمْتُ عَلَيْهِ وَقْتَ رَحِيلِي وَلَنْ أَذْهَبَ إلى أَيِّ بَلَدٍ آخَرَ. وبَيْنَما أنَا فِي الفِرَاشِ أُفَكِّرُ إذْ رَأَيْتُ جَمْعاً مِنَ ٱلبَحَّارَةِ يقتحِمُونَ المَكَانَ وبأيدِيهِمْ ٱلسُّيُوفُ والخَنَاجِرُ وأَمْسَكُوا بِي وأَنَا فِي دَهْشَةٍ مِنْ أمرِهِمْ وفِي خَوْفٍ مِمَّا يَفْعَلُونَ. وصَعِدُوا بِي إلى سَطْحِ المَرْكَبِ ووَقَفُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِي. فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ نَقْتُلُه وآخَرُ يَقُولُ بَلْ نُلْقِي بِهِ فِي البَحْرِ فَصَرَخْتُ فِيهِمْ وقُلْتُ لَهُمْ: ـ ما هٰذا الَّذِي تَفْعَلُونَ بِي؟ ولِمَاذا تُرِيدُونَ قَتْلِي؟! فَقَالَ واحِدٌ مِنْهُم: ـ نُرِيدُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْك ونَأْخُذَ الصُّنْدُوقَ الَّذِي فِيهِ خَرِيطَةُ كَنْزِ الرُّبانِ ونَأْخُذَ المَرْكَبَ ونَذْهَبَ لإحْضارِهِ ونَقْتَسِمَهُ بَيْنَنا. فَقُلْتُ لَهُمْ: ـ الصُّنْدُوقُ لَكُمْ خُذُوهُ وآذهبوا بِي إلى حَيْثُ أُرِيدُ ثُمَّ آذهبوا بَعْدَ ذٰلِكَ بالمَرْكَبِ إلى حَيْثُ تُرِيدُونَ. فقَالُوا: ـ إذا ذَهَبْنا بِكَ إلى حَيْثُ تُرِيدُ فَسَوْفَ تَفْضَحُنَا هُنَاكَ ويَشْنُقُونَنا قَبْلَ أَنْ نَرْحَلَ. ولِذٰلِكَ فلَيْسَ أمَامَنا إلاَّ أنْ نَتخلَّصَ مِنْكَ الآنَ. فقلتُ لَهُمْ: ـ حَرامٌ عليكُمْ أنْ تَفْعَلُوا بِي هٰذا وأنَا لَمْ أُسِيءْ إلى أَحَدِكُمْ ولَيْسَ لِي ذَنْبٌ في أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ سَلَّمَنِي ٱلصُّنْدُوقَ؛ فإنِّي لا حَاجَةَ بِي إلى هٰذا الكَنْزِ، فَخُذُوا كلَّ شَيْءٍ ويُمْكِنُ أنْ أُعْطِيَكُمْ أَكْثَرَ مِنْهُ فإنِّي رَجُلٌ غَنِيٌّ أملِكُ الكثِيرَ مِنَ الأَمْوَالِ والكُنُوزِ. فقالوا: ـ لا بُدَّ لنا مِنْ أنْ نَتَخَلَّصَ مِنْك حَتَّى لا تُفْشِيَ أَمْرَنا ونَمُوتَ نَحْنُ. وما شَعَرْتُ إلاَّ وقَدْ حَمَلُونِي وأَلْقَوْا بِي مِنْ فَوْقِ

المرْكَبِ كَمَا فَعلُوا بِجُثْمَانِ الرَّجُلِ المَيِّت. وحِينَ اصْطَدَمْتُ بِالمَاءِ أخَذَتْنِي رِعْشَةٌ حَلَّتْها إغمَاءَةٌ وكِدتُ أهْوِي إلى القَاعِ لَوْلا إلْمَامِي بالسِّبَاحَةِ فأخَذْتُ أُحَرِّكُ رِجْلَيَّ في الماءِ كَيْ أطْفُوَ عَلَى السَّطْحِ ثُمَّ أضرِبُ بِيَدِي حَتَّى أظَلَّ فَوْقَه.

وهٰكَذا وجَدْتُ نَفْسِي وَحِيداً في بَحْرٍ مُظْلِمٍ لا نِهَايَةَ لَهُ فَقُلْتُ لا حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلا بِاللَّهِ، هٰذِهِ نِهَايَتِي ولا سَبِيلَ إلَى النَّجاة. وأخَذْتُ أرْقُبُ شَبَحَ المرْكَبِ وهُوَ يَغِيبُ بِمَنْ عَلَيْه بَيْنَما أضرِبُ بِكِلْتَا يَدَيَّ فِي المَاءِ بِغَيْرِ جَدْوَى حتَّى كَلَّتْ يَدَايَ وصَارَ جَسَدِي يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ والتَّعَبِ. ومضَتْ لحظاتٌ كأنَّها الدهرُ وأيْقَنْتُ أنِّي هالِكٌ لا محالَة. وإذا





بي أشْعُرُ بجسمٍ غريبٍ يحملُني ويشقُّ بي البحرَ بسُرْعَةٍ مذْهِلَةٍ ولم أشْعُرْ بِنَفْسِي إلاَّ وهذا الشيءُ يقذفُ بي إلى الشَّاطئِ، ثُمَّ يَعُودُ مِنْ حَيْثُ أتى وهُوَ يقْفِزُ في الهَوَاءِ ثُمَّ يخْتفي في الماءِ. ونظرْتُ إليْهِ وأنَا مُلْقىً عَلى الرِّمَالِ فرأيْتُه حُوتاً مِنْ نَوْعٍ يُقالُ لَهُ الدُّلْفِين، وهُو كَمَا عرفْتُ صديقٌ للإنسانِ وقدْ سَمِعْتُ عَنْهُ مِنَ المُسافِرِينَ قِصَصاً كثيرةً وما كُنْتُ أُصدِّقُ حتى حدثَ لي مِنْهُ ما حدثَ الآنَ. وحَمِدْتُ اللّهَ ودَعَوْتُ لهذا الحَيوانِ الّذي ليْسَ لهُ غدْرُ الإنْسانِ. وظَلَلْتُ فوْقَ الشَّاطئِ أرْتَجِفُ مِنَ البَرْدِ والتَّعَبِ فتحامَلْتُ على نَفْسِي وحاوَلْتُ النُّهُوضَ منْ مَكاني فلَمْ أَقْدِرْ وخلَعْتُ مَلابِسِي المُبْتلَّةَ وأنَا جالسٌ في

مَكاني وقُمْتُ أبْحَثُ عن شيءٍ أحْتَمِي بِهِ مِنَ البَرْدِ فلَمْ أجِدْ، فعُدْتُ إلى مَلابِسِي وعَصَرْتُها من الماءِ ثُمَّ وضعْتُها على جَسَدي المرْتَجِفِ وأسْلَمْتُ أمْرِي لِلّه. وكانَ النهارُ علَى وشْكِ الطُّلُوعِ فصَبَرْتُ علَى ما أنا فيهِ حتَّى أشرقَتِ الشمسُ ونَفَذَتْ أشعَّتُها إلى جَسَدِي فأحْسَسْتُ بالدِّفْءِ يَسْري فِي أوْصَالِي شيئاً فشيئاً - وما هِيَ إلا ساعَةٌ حتَّى كُنْتُ في أحْسَنِ حَالٍ وأخَذْتُ أجُولُ بِبَصَرِي فِي مَا حَوْلِي وأتَساءَلُ عمَّا إذا كَانَ هُنَاكَ سُكَّانٌ فِي هٰذِهِ الجَزِيرَةِ أمْ أنَّها خَالِيَةٌ. ووجَدْتُني فِي حاجَةٍ مُلِحَّةٍ إلى النَّوْمِ فأغْمَضْتُ عَيْنَيَّ وأسلَمْتُ نَفْسِي لَهُ. أفَقْتُ مِنْ نَوْمِي عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وكُنْتُ في غايَةِ الجُوعِ فنَظَرْتُ إلى داخِلِ الجَزِيرَةِ حَيْثُ كانَتْ تُغَطِّيها الأشْجارُ البَاسِقَةُ ونَخِيلُ الجَوْزِ الَّذِي وجَدْتُ تَحْتَهُ الكَثِيرَ مِنْ جَوْزِ الهِنْد. فأخذت مِنْهُ عَدَداً وبَعْدَما شَرِبْتُ ماءَهُ وأكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى أحْسَسْتُ بالشبعِ وكانَ الظلامُ قَدْ حَجَب عَنِّي رُؤْيَةَ ما بِدَاخِلِ الجَزِيرَةِ فجَلَسْتُ عَلَى الشَّاطِئِ أرْقُبُ البَحْرَ وأتَنَفَّسُ هَوَاءَهُ وأحمدُ اللّهَ على نَجَاتِي مِنْه. ولَمْ أشْعُرْ بِمُرُورِ الوَقْتِ فَقَدْ غَلَبَنِي النَّوْمُ.

فِي اليَوْمِ التَّالِي وبَعْدَ أنِ استَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي قَرَّرْتُ أنْ أتَسَلَّلَ إلى دَاخِلِ الجَزِيرَةِ لأرَى مَا إذَا كَانَتْ مَسْكُونَةً أو خَاوِيَةً. ومَا أنْ تَرَكْتُ الشاطِئَ حتَّى وجَدْتُ نَفْسِي بَيْنَ الأدْغالِ والأحْرَاشِ لا أستَطِيعُ السَّيْرَ إلا بِصُعُوبَةٍ لِتَشابُكِ الأغْصَانِ. وتَمزَّقَتْ مَلابِسِي مِنْ كَثْرَةِ الأشْوَاكِ كَمَا جُرِحَ ذِرَاعِي. وأصْبَحْتُ فِي وَسَطِ هٰذِهِ الأدْغالِ كالتَّائِهِ فِي الصَّحْراء. فَلَمْ أعُدْ أدْرِي كَيْفَ أخْرُجُ مِنها أوْ أعْرِفُ كَيْفَ أعُودُ إلى الشَّاطِئِ مَرَّةً أخرى. وخُيِّلَ إليَّ أنَّني إنَّما أدُورُ حَوْلَ نَفْسِي لِتَشابُهِ الأشْجارِ والأغْصان. وَظَلَلْتُ هٰكذا طَوالَ النَّهارِ أتَسَلَّلُ مِنْ بَيْنِ الأغْصَانِ وأتَغَذَّى بِمَا ألْقاهُ مِنَ الثِّمارِ حتَّى نَالَ مِنِّي التَّعَبُ فَجَلَسْتُ فَوْقَ عُشْبٍ أخْضَرَ وكِدْتُ أسْتَلْقِي لأنَامَ لَوْلا أنْ رأيْتُ شَيْئاً يَتَحَرَّكُ فأمْعَنْتُ النَّظَرَ إليهِ فوجَدْتُه ثُعْبَاناً بَشِعَ المَنْظَرِ طَوِيلَ الحَجْمِ ممَّا جَعَلَنِي أقفِزُ مِنْ مَكانِي وأعْدُو بَيْنَ



الأشْجَارِ غَيْرَ عابِىءٍ بِمَلَابِسِي الَّتِي تَمزَّقَتْ مِنْ تَشَابُكِ الأغْصَانِ وأحْسَسْتُ بالدِّمَاءِ تَسِيلُ مِنْ جَسَدِي كُلِّهِ. فأخَذْتُ أنْظُرُ إلى أعْلَى الأشْجَارِ التي تشابكَتْ فروعُها وأوْراقُها حتَّى حجبَتْ عنَّا وعنِ المكانِ شُعَاعَ الشمسِ وضَوْءَ السماءِ وأصبَحْتُ أجْرِي بلا هَدَفٍ وأعْدُو بلا سَبَبٍ حتَّى تَلَقَّانِي ما هُوَ أدْهَى وأعْظَمُ مِنْه؛ حيوانٌ كبيرٌ يشْبِهُ القِطَّ، أسودُ اللونِ وعَيْنَاه تَقْدَحَانِ شَرَراً وتُخْرِجُ جَمْراً. فَتَح فَمَهُ مُزَمْجِراً فَظَهرتْ أنيابُهُ كذؤابَاتِ السُّيُوفِ وأسنَّةِ

الرِّمَاحِ. فامتَدَّتْ يدي في سُرْعَةٍ خاطِفَةٍ واخْتَطَفْتُ خِنْجَري مِنْ وَسَطِي وصَرَخْتُ فيهِ بلا وَعْيٍ صرْخَةً هائِلَةً جَعَلَتْهُ يَقِفُ في مَكَانِهِ مُزمْجِراً ينتَظِرُ مِنِّي أيَّ بادِرَةِ خَوْفٍ حتَّى يَنْقضَّ عَلَى عُنُقِي. لكِنِّي كُنْتُ أشْبَهَ بالمَجْنُونِ الَّذِي لا يَعْرِفُ الخَوْفَ ولا يأبَهُ للأخْطَارِ. ممَّا جَعَلَ القِطَّ يَتَرَاجَعُ إلى الخَلْفِ أمَامَ نَظَرَاتِي القاسِيَةِ ثُمَّ يَفِرُّ هارِباً وقَدْ آثَرَ السَّلامَةَ. أمَّا أنا فَقَدْ جَلَسْتُ فِي مَكَانِي مِنْ هَوْلِ المُفَاجَأَةِ وأحْسَسْتُ بأنَّ قدميَّ لَمْ تَعودا قادِرَتَيْنِ على حَمْلِي. لكِنِّي تحامَلْتُ عَلى نَفْسِي ونَهَضْتُ وتَرَكْتُ مَكَانِي خَوْفاً مِنْ عَوْدَةِ هٰذا الحَيَوانِ اللَّعِينِ أوْ أيِّ حَيوانٍ آخَرَ. وعُدْتُ مَرَّةً أُخْرَى أبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ لِي مِنْ بَيْنِ الأشْجَارِ ومِنْ تِلْكَ الغَابَةِ الواسِعَةِ الَّتِي لا نِهَايَةَ لَهَا.

وأخِيراً استطَعْتُ أنْ أعْثُرَ عَلى مَجْرى ماءٍ ينْحَدِرُ تَيَّارُهُ بسُرْعَةٍ وقُوَّةٍ فاتَّخَذْتُ طَرِيقِي عَلى شَاطِئِهِ مُتَتَبِّعاً مَصْدَرَ انْدِفَاعِهِ حتَّى شاهَدْتُ شَلَّالاً عَظِيماً فتسلَّقْتُ الصخورَ حتَّى وصَلْتُ إلى أعْلاهُ. ومِنْ هٰذا المكانِ أخَذْتُ أنْظُرُ إلى الجزيرةِ الَّتي بَدَتْ لِي عالَماً كَبيراً. ولٰكِنْ لا أرى فِيهِ أحَداً مِنَ النَّاسِ. ولَوْ أنِّي أشْعُرُ في قَرارَةِ نَفْسِي أنَّهُ لَيْس خالِياً مِنْهُمْ. فطالَمَا أنَّ هُنَاكَ حَيَوَانَاتٍ تَعِيشُ عَلَيْها فَفِيهَا كُلُّ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ للبَشَرِ. . ولٰكِنْ أيْنَ هُمْ؟!.

لا بُدَّ أنَّهُمْ وراءَ هٰذِهِ الجِبَالِ البعيدةِ الَّتي ترتَفِعُ قِمَمُها فَوْقَ السَّحابِ لذا كَانَ عَلَيَّ أنْ أصِلَ أوَّلاً إلى هٰذِهِ الجِبَالِ وأصْعَدَ إلى نِهَايَتِها ثُمَّ أنْحَدِرَ مِنْها إلى النَّاحِيَةِ الأُخْرى لأكْتَشِفَ ما يَكْمُنُ خَلْفَها. لٰكِنْ في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ كُنْتُ مُتْعَباً وجائِعاً فجَلَسْتُ أسْتَرِيحُ وأُفَكِّرُ في أيِّ شيءٍ آكُلُه. ولَمْ أجِدْ بي رَغْبَةً في أكْلِ الثِّمارِ. وإنَّما كُنْتُ أتَمَنَّى أنْ آكُلَ لَحْماً أو سَمَكاً.

وحَيْثُ أنّ اللحْمَ مُتعذّرٌ الآنَ فالسَّمَكُ أقْرَب. وهَا هُوَ النَّهْرُ فِي أسْفَل. وشاهَدْتُ السَّمكَ يَسْبَحُ بَيْنَ صخورِه. فَمَا عليَّ إلاّ أنْ أُحاوِلَ اصْطِيادَهُ. وبَدَأتُ فِي النُّزُولِ مِنْ قِمَّةِ الشلاّلِ إلى حَيْثُ يَجْرِي النَّهْرُ وتَناوَلْتُ فَرْعاً مُسْتَقِيماً مِنْ شَجَرَةٍ وأَعْمَلْتُ خِنْجَرِي فِي أحَدِ طَرَفَيْهِ حتّى صارَ مُدَبَّباً وَاسْتَعْمَلْتُهُ كَحَرْبَةٍ فِي صَيْدِ السَّمك. وبَعْدَ مَجْهُودٍ اسْتَطَعْتُ أنْ أفوزَ بِوَجْبَةٍ مُشْبِعَةٍ وشَهِيَّة.

مَضَتْ عِدَّةُ أيّامٍ وأنا أدورُ بَيْنَ الأشْجارِ وأجُوبُ الأرْضَ داخِلَ الجَزيرَةِ حتّى استَطَعْتُ أنْ أتَعَرَّفَ عَلَى بَعْضِ أمَاكِنَ فِيها واتَّخَذْتُ لِي مِنْها مَكاناً آمِناً مِنَ الحَيَوانَاتِ المُفْتَرِسَةِ حتّى ضِقْتُ ذَرْعاً بِوَحْدَتي وقَرَّرْتُ أنْ أرْحَلَ إلى ما وَرَاءِ هٰذِهِ الجِبَالِ البَعِيدَةِ لَعَلِّي أجِدُ هناكَ حَيَاةً أخْرَى وأعْثُرُ عَلَى بَشَرٍ مِثْلي.

وذاتَ صباحٍ حَمَلْتُ مَعِي بعضَ الزّادِ وبدأتُ المسيرَ مِنَ الصباحِ حتّى المساءِ. ثُمّ واصَلْتُ فِي اليومِ التّالي.. وقَبْلَ أنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ كُنْتُ أقِفُ أسْفَلَ الجَبَلِ أتَطَلَّعُ إلى أعْلاهُ الّذِي يُنَاطِحُ السَّحابَ. ولَمْ يَكُنْ مِنَ المُمْكِنِ أنْ أبدأَ فِي الصُّعُودِ فِي نَفْسِ اليَوْمِ فَاسْتَرَحْتُ فِي مَكانِي حَتّى الصَّباحِ. وبَعْدَها بَدَأْتُ الرِّحْلَة.

كانَ الجَبَلُ مليئاً بالصُّخُورِ الوَعْرَةِ والمَلْسَاءِ ممّا سَبَّبَ لِي تَعَباً شديداً وَجُهْداً جَعَلَني أسْتَرِيحُ بَيْنَ وَقْتٍ وآخَر. ومَضَى اليومُ وَمَا قَطَعْتُ فِيهِ إلاّ قليلاً. وفي اليومِ التّالي واصَلْتُ الصُّعُودَ مِنْ شُرُوقِ الشمسِ حتّى غروبِها ونظَرْتُ إلى أعْلى فمَا أسْتَطَعْتُ أنْ أرَى نِهايَةً. وكانَ ما مَعِي مِنَ الطَّعامِ قد نَفَدَ فَجَلَسْتُ فِي مَكَانِي مُنْهَكَ القِوَى خاوِيَ البَطْنِ يائِساً مِنْ مُوَاصَلَةِ الصُّعُودِ. وحاوَلْتُ النَّوْمَ فَلَمْ تَغْمُضْ عَيْنايَ مِنْ كَثْرَةِ الحُزْنِ وشِدَّةِ الجُوعِ. فتَوَارَيْتُ خَلْفَ صَخْرَةٍ أتَّقِي بِها مِنَ الرِّياحِ البارِدَةِ في هٰذا الارْتِفاعِ مِنَ الجَبَلِ وحتّى أكُونَ في مأمَنٍ مِنَ السُّقُوط. وكانَ الليلُ قَدْ أقْبَلَ بِظَلامِهِ فَسَكَنَ كُلُّ شيءٍ، إلا صَفِيرُ الرِّيَاحِ. وأخِيراً بدأ النومُ يداعِبُ جُفوني فاسْتَلْقَيْتُ فِي مَكانِي وبَدأْتُ أغْمِضُ

عَيْنَيَّ لكنّي سمعْتُ أصواتاً قريبةً مِنّي وشعرْتُ بحركةٍ غريبةٍ حَوْلي فنهضْتُ فزعاً وكتمْتُ أنْفاسي وأخذْتُ أحدِّقُ بعيْنَيَّ ناحيةَ هٰذِهِ الأصْواتِ فرأيْتُ ويا لَهَوْلِ ما رأيْت. رأيْتُ أجْساماً تتسلَّلُ وتقفزُ مِنْ فَوْقِ الصُّخورِ بِي خِفَّةٍ كَخِفَّةِ القرودِ إلا أنَّهُمْ يَسِيرونَ عَلى أرْجُلِهِمْ فقط.

انْكَمَشْتُ في مَكَاني وأخَذَتْني رَجْفَةٌ مِنَ الخَوْفِ واحْتَرْتُ في أمْرِهِمْ. أهُمْ بَشَرٌ أمْ حَيَوانات؟ وبَعْدَ أنْ مَضَوْا بَعيداً عَنّي جَلَسْتُ خائفاً لا أدْري ماذا أفْعلُ أو إلى أيْنَ أذْهَبُ؟ . فإنّي في مَكَاني مُعلَّقٌ بَيْنَ السَّماءِ والأرْض. فلا سَبيلَ إلى النُّزول. ولا مَناصَ مِنَ الصُّعودِ. ولا فِرارَ مِنْ هٰذِهِ المَخْلوقات. وذَهَبَ النومُ عَنّي وحَلَّ الخَوْفُ والسُّهْدُ وأصْبَحْتُ لا حَوْلَ لي ولا قُوَّة فأسْلَمْتُ أمْري إلى اللّه..

مضى عَلى حَالي هٰذا وَقْتٌ كأنَّهُ دَهْرٌ ثُمَّ سمِعْتُ حَرَكَةَ أقْدامِهِمْ مرَّةً أخرى فاخْتَبأْتُ خلفَ الصَّخْرَةِ وأحْسَسْتُ بِقَلْبي يكادُ يقفزُ مِنْ جَسَدي مِنْ سُرْعَة الخفَقَانِ ومِنْ شِدَّةِ خَوْفي حَتّى مَرُّوا مِنْ أمامي وهُمْ يحْمِلُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ ظباءً ووعولاً وأشياءَ أخرى. فعَرَفْتُ أنَّهُمْ أناسٌ ولَيْسُوا حَيوانَاتٍ. وجَعَلْتُ أتساءَلُ فيما يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ لَوْ كانُوا رأوْني. لقَدْ سَبَقَ ورَأيْتُ أناساً مِنْ آكِلي لُحُومِ البَشَرِ في رِحْلاتي السَّابِقَةِ. فَهَلْ هؤُلاءِ مِنْهُمْ؟ لكنّي أراهُمْ يَصْطادُونَ الحَيوانَاتِ لِطَعامِهِمْ. فكيفَ يكونُونَ مِنْ آكلي البَشر؟ لٰكِنَّ مظْهَرَهُمْ لا يَبْعثُ الطُّمأْنينَةَ في نَفْسي. فَهُمْ مِثْلُ الإنسانِ الحَجَرِيِّ أو إنسانِ الغابَةِ كما سَبَقَ أنْ سَمِعْتُ وقَرأْتُ عَنْهُمْ فِي العُهُودِ المَاضِيَة. فَهَلْ يُمْكِنُ أنْ يكونوا في هٰذا العَصْر. ولِمَ لا وقَدْ رَأيْتُ في بعضِ أسْفاري حَيَوانَاتٍ ما قَبْلَ التّاريخ. بَلْ لِي مَعَ الرُّخِّ رِحْلَةٌ مِنْ جَزيرةٍ إلى جَزيرَة.

كلُّ هٰذِهِ الأفْكارِ كُنْتُ أحَدِّثُ بِها نَفْسِي وأنا قابعٌ في مَكَانِي أجْلِسُ القُرْفُصاءَ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ والجُوعِ والبَرْد. وفي النهايَةِ أغمضْتُ عَيْنَيَّ بَعْدَ أنْ غَلَبَنِي النومُ حتّى

استيقظتُ مَعَ الصَّباح. ولَمْ تَكُنْ لَدَيَّ قُدْرَةٌ عَلى مُواصَلَةِ الصُّعُودِ لٰكِنِّي تَحامَلْتُ عَلى نَفْسِي وقَرَّرْتُ أنْ أواصِلَ مَهْمَا كَانَ الأمْرُ حتَّى لا أرى هؤُلاءِ النَّاسَ. وأخَذْتُ أصْعَدُ بِبُطْءٍ وأنا أرْقُبُ ما حَوْلِي مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ أخْطُوها وأُرْهِفُ السَّمْعَ حتَّى لا أُفاجَأَ بِشيءٍ. ولٰكِنْ كَمَا يَقُولُونَ إنَّ الحذَرَ لا يَمْنَعُ القَدَر. فإذا بِي في لَمْحَةٍ مِنَ البَصَرِ أجِدُنِي مُحاطاً بِهٰذِهِ الكائِنَاتِ الغَرِيبَةِ مِنَ البَشَر. فَهُمْ أناسٌ أقْرَبُ إلى القُرُودِ في شَكْلِهِمْ وحَرَكَاتِهِمْ، غَيْرَ أنَّهُمْ قَصِيرُو القَامَةِ يُمْسِكُونَ هِرَاوَاتٍ غَلِيظَةً فِي أيْدِيهِمْ. وتَقَدَّمَ مِنِّي أحَدُهُمْ فرَكَلْتُهُ بِقَدَمِي فِي بَطْنِهِ رَكْلَةً قَوِيَّةً جَعَلَتْهُ يَهْوِي مِنْ فَوْقِ الجَبَلِ ثُمَّ أهْوَيْتُ بِقَبْضَتِي عَلى وَجْهِ الآخَرِ فَسَقَطَتْ هِرَاوَتُهُ تَحْتَ قَدَمِي فَالْتَقَطْتُها بِسُرْعَةٍ بِيَدِي اليُسْرى وأخْرَجْتُ بِاليُمْنى خِنْجَرِي وكَانَتْ مَعْرَكَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كَتَبَ اللّٰهُ لِي النَّصْرَ فِيها عَلَيْهِمْ فَفَرُّوا مِنْ أمَامِي بَعْدَ أنْ سَقَطَ مِنْهُمْ مَنْ سَقَطَ وهَوَى مِنْ فَوْقِ الجَبَلِ مَنْ هَوى. وانْطَلَقُوا يَعْدُونَ بَعِيداً عَنِّي وهُمْ يَصْرُخُونَ صرخَاتٍ مُزْعِجَةٍ ومُفْزِعَة. في تِلْكَ اللحْظَةِ أحْسَسْتُ بأنِّي إنسانٌ قَوِيٌّ لا يُخِيفُنِي جَيْشٌ مِنْهُم. فوقَفْتُ أنْظُرُ إلَيْهِمْ رافِعاً الهِرَاوةَ بِيَدٍ ومُمْسِكاً الخِنْجَرَ باليَدِ الأُخْرى. بينما هُمْ يقفِزُونَ مِنْ فَوْقِ الصخورِ كالقُرُودِ المذْعُورة. وعَلى بُعْدِ خُطْوَتَيْنِ رَأيْتُ فُتْحَةً فِي الجَبَلِ فعَرَفْتُ أنَّها بابُ كَهْفِهِم الَّذِي يَسْكُنُونَ. فَوَقَفْتُ عَلى بَابِهِ قَلِيلاً لأنْظُرَ ما بِداخِلِه. فوجَدْتُ بَعْضاً مِنْ لَحْمِ الظِّبَاءِ مَشْوِياً فأخَذْتُ مِنه كَمِّيَّةً كبيرةً وخَرَجْتُ إلى بَابِ الكَهْفِ وجَلَسْتُ لألْتَهِمَهُ التِهاماً مِنْ شِدَّةِ جُوعِي ونَشْوَةِ نَصْرِي. ومِنَ الغَرِيبِ أنِّي رَأيْتُهُمْ وقَدْ عَادُوا ووَقَفُوا بَعِيداً يَرْقُبُونَنِي ولا يَجْرُؤُونَ عَلى أنْ يَقْتَرِبوا. وكُنْتُ بَيْنَ الحِينِ والآخَرِ أقِفُ وأرْفَعُ يَدِي بالهِرَاوةِ فَيُسْرِعُونَ بالفِرَارِ ثُمَّ يَتَسَلَّلُونَ عائِدِينَ إلى مَكَانِهِمْ مَرَّةً أخرى. ووَجَدْتُ في دَاخِلي سَعَادَةً غامِرَةً وأحْسَسْتُ وكأنِّي أقْوى إنْسانٍ في تلكَ الجزيرةِ. بَلْ أنِّي مَلِكُها ومَالِكُها. ولكنَّ هٰذا الإحساسَ تبدَّدَ بِمُجَرَّدِ أنْ تذَكَّرْتُ أنَّني يجبُ أنْ أُواصِلَ الصُّعُودَ إلى نهايةِ هٰذا الجَبَلِ والفِرَارَ مِنْ هٰذِهِ الكائناتِ البَشِعَةِ الَّتِي لا



يُمْكِنُ أنْ أعِيشَ مَعها حتّى ولَوْ كُنْتُ مَلِكاً علَيْها. ولِهٰذا تركتُهُمْ وتركْتُ مَكاني وبدأتُ أعُودُ إلى تَسَلُّقِ الجَبَلِ مَرّةً أخرى حتّى وصَلْتُ في النهايَةِ إلى قِمَّتِهِ ووقفْتُ مَزْهُوّاً بانْتِصاري عَلَيْهِ وكأنّي كُنْتُ في سِباقٍ مَعَهُ وقَهَرْتُه. ثُمّ جلسْتُ لأستريحَ مِنْ عَناءِ تَعَبي ومَعَ جُلُوسِي تبدَّدَ غُرُورِي ولَمْ يَعُدْ لديَّ ما أزْهُو بِهِ. فَقَدْ رأَيْتُ مِنْ فَوْقِ الجَبَلِ البَحْرَ عَلَى النّاحِيَةِ الأُخْرى منه وليسَ هُناكَ سِواهُ. وجلسْتُ مَهْمُوماً أُفَكِّرُ في ما أفْعَل. هلْ أعُودُ مِنْ حَيْثُ أتَيْتُ أمْ أنْحَدِرُ ناحيةَ البَحْرِ وأعِيشُ فوقَ صخورِهِ بِلا طَعَامٍ أو ماءٍ؟ ولمْ يَكُنْ أمَامِي ما أفْعَلُه إلاّ أنْ أتْرُكَ أمْرِي إلى الصَّباحِ بَعْدَ أنْ أوشكَتِ الشمسُ على المغيبِ وبَعْدَ أنْ قَضَيْتُ ليلةَ الأَمْسِ كُلَّها ساهِراً. وما أنْ أسْلَمْتُ نَفْسِي للنَّوْمِ ومَا كَادَتْ عَيْنايَ تَغْمُضانِ حتّى سمِعْتُ حَرَكَةً جَعَلَتْني أَهُبُّ مِنْ مَكاني فَزِعاً بَعْدَ أنْ رأيتُ هٰذهِ الكائِناتِ تتقدَّمُ مِنّي مَرّةً أخرى. فأخرَجْتُ خِنْجَري بِسُرْعَةٍ وأخذْتُ أُلَوِّحُ بِهِ فِي يَدِي وأنا خَائِفُ هٰذِهِ المَرَّةَ. وشعرْتُ في داخِلي أنّي لَنْ أنْتَصِرَ عليهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ. ولٰكِنّي لَمْ يَكُنْ أمَامِي إلاَّ أنْ أدَافِعَ عَنْ نَفْسِي وأدْخُلَ مَعَهُمْ فِي مَعْرَكَةٍ مَهْما كانَتِ النِّهايَة. ومعَ اقْتِرابِهِمْ أكْثَر انْتَصَبْتُ فِي وِقْفَتِي ورَفَعْتُ يَدي بالخِنْجَرِ لأَهْوِيَ بِهِ عَلَى أوّلِ مَنْ يَتَقدَّم. غَيْرَ أنّي رأَيْتُهُمْ يَقِفُونَ فِي مَكانِهِمْ يُحَدِّقُ بعضُهُمْ فِي بَعْضٍ ويَتَهامَسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمّ وجَدْتُهُمْ بَعْدَها يَسْجُدُونَ إلى الأرْضِ ثُمَّ يَرْفَعُونَ وجُوهَهُمْ وينظُرونَ نَاحِيَتِي وكأنَّهُمْ يُشْعِرُونَني بِوَلاَئِهِمْ لِي. ثُمّ تَقَدَّمَ مِنّي أحدُهُمْ وفِي عَيْنَيْهِ نظراتٌ ضارِعَةٌ مَمْزُوجَةٌ بالخَوْفِ ووَقَفَ أمَامِي يُشِيرُ بِحَرَكاتٍ لَمْ أفْهَمْ مِنْها إلاّ أنَّ هُناكَ شيئاً يُرِيدُونَ مِنّي أنْ أذْهَبَ مَعَهُمْ لِرُؤْيَتِه. ولمْ يَكُنْ أمَامِي إلاّ تَلْبِيَةُ رَغْبَتِهِمْ فأشَرْتُ لَهُ كَيْ يَسِيرَ أمامي فظَهَرَتْ بَوادِرُ السُّرُورِ علَى وَجْهِهِ وأشارَ إلى زُمَلائِهِ فَوَجَدْتُهُمْ يُهَلِّلُونَ ويقفِزُونَ في الهَواءِ فَرَحاً، تَمَاماً كَما تَفْعَلُ القُرُود. ثم آستدارُوا لِيَهْبِطُوا الجَبَلَ وأنا أسِيرُ خَلْفَهُمْ ولا أعْلَمُ ما يَنْتَظِرُني أو ماذا يُرِيدُونَ مِنّي حتّى وَصَلْنا إلى بَابِ الكَهْفِ فَدَخَلُوا إليهِ وأنا خَلْفَهُم. ورأيْتُ دَاخِلَ الكَهْفِ نِساءَهُمْ وأطْفالَهُمْ

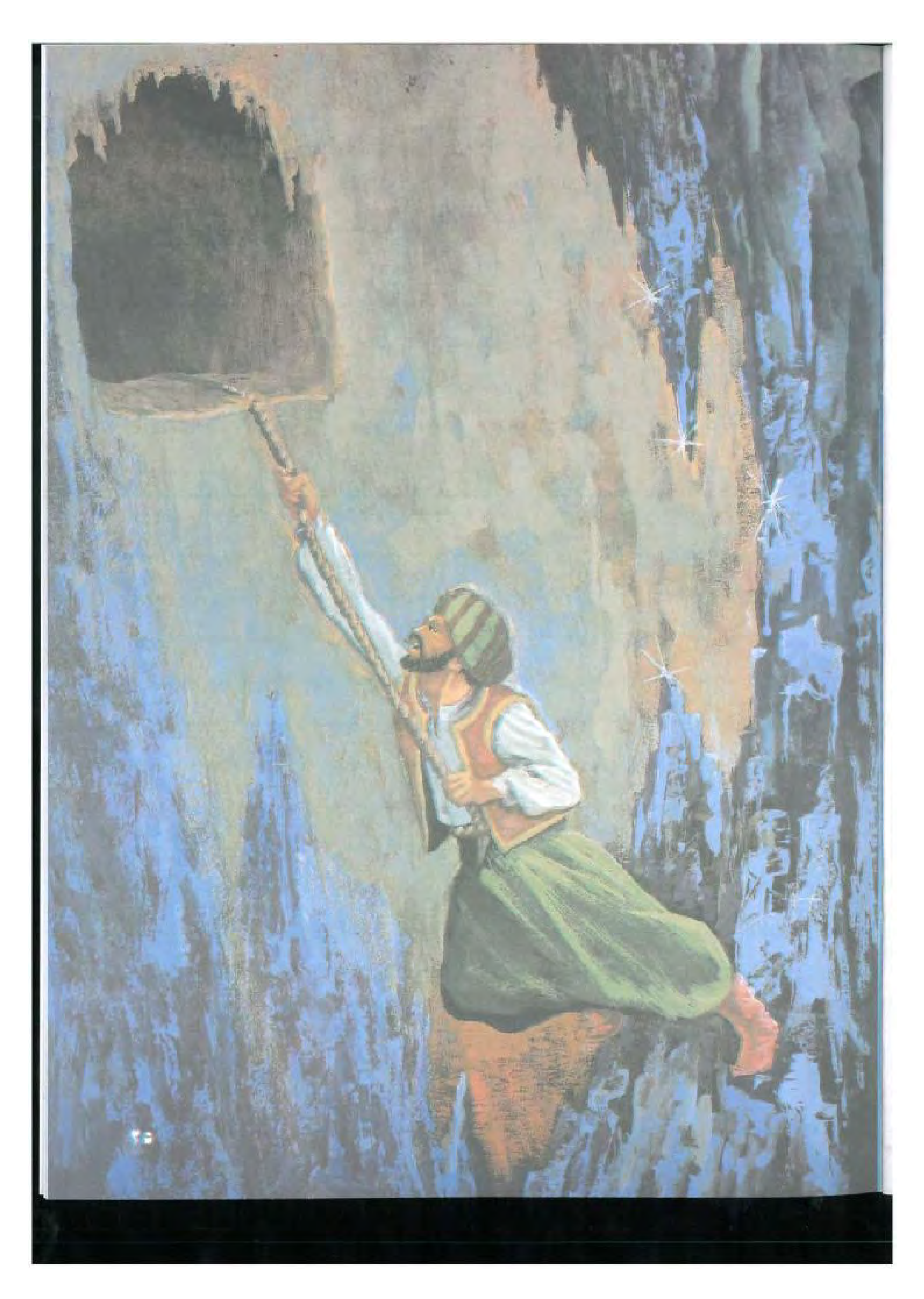
يَقِفُونَ وهُمْ يَنْظُرُونَ في خَوْفٍ ورَهْبة. فـابْتَسَمْتُ لَهُمْ ورأَيْتُ أثَرَ ٱبْتِسَامتِي عَلَى وُجُوهِهِمْ. فَقَدْ تَبَدَّلَتْ نَظَرَاتُ الخَوْفِ فِي وجُوهِهِمْ إلى ٱطمِئْنانٍ وسَكِينَةٍ وبدأ الأطفالُ يتقدَّمُونَ نَاحِيَتي ووجَدْتُني أُرَبِّتُ عَلَى رؤوسِهِمْ بِيَدِي في سَعَادةٍ وحُبّ. وكانَ رجالُهُمْ قَدْ وَقَفُوا حَوْلَ مَائِدَةٍ كَبِيرَةٍ صُنِعَتْ مِنَ الحجارةِ وعليها ما لذَّ وطابَ مِنَ الثِّمارِ والغزلانِ المشْوِيَّةِ وأشارُوا لي بأنْ أجلِسَ فجلسْتُ وأكلْتُ حتَّى شبعْتُ وهُمْ وقُوفٌ ينظرُونَ إليَّ في سعادَةٍ بالِغَةٍ. وبعدْ أنْ فَرَغْتُ جلسوا هُمْ يأكلُونَ ما تَبَقَّى مِنِّي. وبَعْدَ وقتٍ قصيرٍ وجدْتُ النومَ يغلِبُني وعينيَّ تغمضان رَغْماً عَنِّي. وحاوَلْتُ جاهداً أنْ أكُونَ متيقظاً حتَّى لا يَحْدُثَ مِنْهُمْ ما يَضُرُّني أثناءَ نَوْمي. ولكنَّ سُلْطَانَ النومِ كانَ أقْوى منْ كلِّ المخاوِفِ الَّتِي بداخلي فَلَمْ أشعُرْ بَعْدَ ذلك بِشَيْءٍ إلا فِي صَباحِ اليومِ التَّالي وأنَا أتقَلَّبُ على فِرَاشٍ مِنْ فِراءِ الحَيَوانِ قَدْ وُضِعَ عَلَى أعْشَابٍ رَخْوَةٍ فجعلتْهُ فِراشاً وثِيراً لَيِّناً مُريحاً للجَسَد. ولمّا رَأَوْني مُسْتَيْقِظاً أسرعُوا إليَّ بسلالٍ مِنَ الفَاكِهَةِ الطَّازجَةِ فأكَلْتُ ثُمَّ قدَّمُوا لي آنِيَةً بِها لَبَنٌ فشَرِبْتُ وَحَمِدْتُ ٱللَّهَ عَلَى أنَّهُ لَمْ يحدُثْ مِنْهُمْ شيْءٌ أثناءَ نَوْمِي وشَكَرْتُهُمْ بٱبْتِسَامَاتي. ثُمَّ نهضْتُ مِنْ فِرَاشِي وأخَذْتُ أتجَوَّلُ فِي جَوَانِبِ المغارَةِ فَرَأَيْتُ سَرَادِيبَ كَثِيرَةً فِيها.. وحَاوَلْتُ دُخُولَ أحَدِها فَوجَدْتُهُمْ يصْرُخونَ ويقفِزُونَ وكأنَّهُمْ يُحَذِّرُونَنِي من خَطَرٍ أنا مُقْدِمٌ عليهِ فوقَفْتُ فِي مَكَانِي أنْظُرُ إليهِمْ في دَهْشَةٍ وأنظُرُ إلى داخِلِ السِّرْدَابِ وعِنْدِي فضُولٌ ورَغْبَةٌ مُلِحَّةٌ فِي أنْ أكتَشِفَ ما بِدَاخِلِهِ. ولَكِنِّي فِي النِّهَايَةِ لَمْ أشأْ أنْ أُغْضِبَهُمْ أوْ أُثِيرَ مَخَاوِفَهُمْ فَتَرَكْتُ ٱلسِّرْدَابَ وٱتَّجَهْتُ إلى بَابِ الكَهْفِ وَوَقَفْتُ خَارِجَهُ وكَأنِّي أنْظُرُ إلى الفَضَاءِ بَيْنَما ذِهْنِي وتَفْكِيرِي فِي هٰذا السِّرْدَابِ وَمَا بِدَاخِلِه. وقَدْ أضْمَرْتُ في نَفْسِي أنْ أدْخُلَهُ مَهْمَا كَلَّفَنِي الأمْر. عَلَى أنْ يكونَ هٰذا فِي غَيْبَةٍ مِنْهُمْ وبِغَيْرِ عِلْمِهِمْ. ويبدُو أنَّهُمْ ٱسْتَراحُوا لِبُعْدِي عَنْ هٰذا السِّرْدَابِ فَوَقَفُوا خَارِجَ الكَهْفِ حَوْلِي ينظُرُونَ إلى ما أنْظُرُ تارَةً وينظرُونَ إليَّ تارةً أخْرى. وَوَضَحَ لِي مِنْ نظراتِهِمْ وأفْعالِهِمْ أنَّهُمْ قَدْ جعَلُونِي زَعِيماً

عَلَيْهِمْ أو اتَّخَذُونِي مَلِكاً لَهُمْ. وكلا الأمْرَيْنِ صَعْبٌ بالنِّسْبَةِ لي. فإنِّي أنْشُدُ اللحْظَةَ الَّتي يُمْكِنُ فِيها أنْ أرْحَلَ عَنْهُمْ أو أفِرَّ مِنْهُمْ. ولكنَّ هٰذا لنْ يَكُونَ قَبْلَ أنْ أرَى ما بِداخِلِ هٰذا السِّرْدَابِ. نظرْتُ إلى أسْفَلِ الجَبَلِ فوَجَدْتُ أنَّ النُّزُولَ أسْهَلُ كثيراً مِنَ الصُّعُودِ وأسْرَع. كَمَا أنَّ خُطُوَاتِي أسْرَعُ كثيراً مِنْ خُطُواتِ هَؤُلاءِ الأقْزَامِ صِغارِ القامَةِ. ولذلك فإنِّي أستطِيعُ وقْتَ اللُّزُومِ أنْ أفِرَّ مِنْهُمْ ولَنْ يَسْتَطِيعُوا اللَّحَاقَ بِي. ولَكِنْ إلَى أيْنَ الفِرار؟ فَلْيَكُنْ إلى أيِّ مَكَانٍ دَاخِلَ الجَزِيرَةِ الوَاسِعَةِ بَعِيداً عَنْهُم. لكنْ لَنْ يَكُونَ هٰذا إلاَّ بَعْدَ أنْ أرى ما بِداخِلِ هٰذا السِّرْدَابِ.

مَضَتْ أيَّامٌ عَدِيدَةٌ وأنا أعيشُ داخِلَ هذا الكهفِ مَعَ هؤلاءِ القومِ أنعمُ بكلِّ ما لذَّ وطابَ وأصبَحْتُ موْضِعَ إعجَابِ نِسَائِهِمْ ومحبَّةِ أطفالِهِمْ. وكنتُ بينَ الحينِ والحينِ أخرُجُ مِنَ الكَهْفِ وأتَجَوَّلُ فَوْقَ الجبلِ. وكانُوا في البِدَايَةِ يلتفُّون حَوْلي كُلَّما خرجْتُ وكأنَّهُمْ يحْرسُونَنِي أو رُبَّما يخافونَ أنْ أتركَهُمْ وأرحلَ عنهُمْ بعدَ أنْ أحسُّوا بالأمانِ في وجودي. غيرَ أنِّي معَ الأيامِ تعلَّمْتُ أنْ أخاطِبَهُمْ بالإشارَةِ فكنْتُ أشيرُ إليهِمْ أحياناً أن يَتْرُكُونِي أتَجَوَّلُ وحدي فيَسْتَجِيبُوا لإشارَتِي ويَقِفُوا بَعِيداً عنِّي. وكنتُ أحاولُ في كلِّ مرَّةٍ أنْ أبتَعِدَ عَنْهُمْ أكْثَرَ حتَّى ألِفُوا أنْ أذهَبَ بعيداً عَنْهُمْ وحْدي. وفي إحْدى هٰذِهِ المرَّاتِ الَّتي كنْتُ أتجَوَّلُ فيها رأيتُ فَوْقَ الجبَلِ عُشْباً ناضجاً مِنَ الأعشابِ المُخدِّرَةِ الَّتي ما أنْ يَمْضَغَها الإنْسَانُ أو يَشْرَبها حتَّى يَنَام لِعِدَّةِ أيَّام. وطَرَأتْ عَلَى بَالِي فِكْرَةُ أنْ أضَعَ لهُمْ مِنه فِي طَعَامِهِمْ وأفْعَلَ بَعْدَهَا مَا أُرِيد. لَكِنِّي خِفْتُ عَلَى أطْفَالِهِمْ مِنْ هٰذا الشَّيْءِ الَّذِي يُمْكِنُ أنْ يَضُرَّهُمْ ويَقْتُلَهُمْ. فعَدَلْتُ عَنْ فِكْرَتِي وتركْتُ كلَّ شيءٍ لِلْوَقْتِ المُلائِم.

وفي مساءِ اليومِ نَفْسِهِ جلستُ على فِرَاشِي أفكِّرُ فِي وَسِيلَةٍ أسْتَطِيعُ بِهَا أنْ أُخدِّرَ الكِبَارَ بِحَيْثُ لا يُصابُ الصِّغارُ. فوافَتْنِي فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ تَحْتَاجُ إلى بِضْعَةِ أيَّام. وقَرَّرْتُ أنْ أبْدَأَ مِنَ الغَد.

وفي صباحِ اليومِ التَّالي أشَرْتُ لَهُمْ بأنَّ الأطْفَال يَجِبُ أنْ يأكُلوا أوَّلاً. وبَعْدَها يأْكُل الكِبَارُ. وصارَ هذا نِظاماً مَفْرُوضاً عَلَيْهِمْ مِنِّي لِعِدَّةِ أيَّام. وبَعْدَها ذَهَبْت إلى حَيْثُ رأَيْتُ الأعْشَابَ واقْتَطَفْتُ مِنْها ما يَكْفي وذَهَبْتُ إلى الكَهْف فَوَضَعْتُها في قُدورِ الطَّعَامِ في غَفْلَةٍ مِنْهُمْ. وكانَ هذا بَعْدَ أنْ أكَلَ الصِّغارُ وفَرَغوا مِنْ طَعَامِهم. وبدأَ الكِبَارُ في الأكْلِ حتَّى امتلأَتْ بطُونُهُمْ واكتفَوْا ثُمَّ انْقَلَبُوا عَلَى الأرْضِ وراحُوا في سُباتٍ عَميق. وأسرَعْتُ إلى السِّرْدَابِ مِنْ فوري وبدأْتُ أخْطُو بدَاخِلِه وكُلِّي شوْقٌ لمَعْرِفَة مَا يَحْويهِ ريا لَهَوْلِ ما رَأَيْتُ. كانَ السِّرْدابُ مظلِماً رَطِباً في بِدَايَتِه. ثم بَعْدَ بِضعِ خُطُواتٍ كانَ هُناكَ سَدٌّ مِنَ الحِجَارَةِ يرتَفِعُ إلى نَحْو مترٍ مِنَ الأرضِ لِيَحُولَ دُونَ دُخُولِ الأطْفَالِ. تخطيتُ هذا السورَ فوجَدْتُ انحداراً في الأرْضِ يجذِبُ الإنْسَانَ إلى أسْفَل إذا لَمْ يَكُنْ عَلى حَذَر. ولمَّا تقَدَّمْتُ قليلاً وجَدْتُ أنَّهُ مِنَ العَسِيرِ أنْ أتقَدَّمَ أكْثَرَ لِشِدَّةِ الانْحِدَارِ. ولَكِنِّي أمْسَكْتُ بكلتا يَدَيَّ بحائِطِ السِّرْدَابِ وأنَا أنقُل قَدَميَّ خُطْوَةً خُطْوَةً في حَذَرٍ شَدِيد. وفَجْأةً انْزَلَقَتْ قَدَمِي وهَوَيْتُ إلى الأرْضِ وتَدَحْرَجَ جَسَدِي إلى أسْفَلِ المُنْحَدَرِ بِسُرْعَةٍ رَهِيبَةٍ. وحَاوَلْتُ جَاهِداً أنْ أتَشَبَّثَ بالأرْضِ ولَكِنْ كَانَ الانْدِفاعُ أقْوى مِنْ أنْ أفْعَلَ شَيْئاً حتَّى اصْطَدَمْتُ في النِّهايَةِ بحَائِطِ السِّرْدَابِ صَدْمَةً قَوِيَّةً أحْسَسْتُ مِنها أنَّ جَسَدِي كُلَّهُ قَدْ تَفَتَّتَ. ولَمَّا استَوَيْتُ جَالِساً نَظَرْتُ لأرَى إلى يَسَارِي فُتْحَةً كَبِيرَةً يَنْبَعِثُ مِنها ضَوْءٌ نَفَاذٌ أزْرَقُ اللَّوْن. كمَا أنِّي شَعَرْتُ بِهَواءٍ سَاخِنٍ يُصَاحِبُ هذا الضَّوْء. فَتقَدَّمْتُ زاحِفاً ونَظَرْتُ دَاخِلَ هذِهِ الفُتْحَةِ لأرَى مَا لَمْ تَرَهُ عَيْنٌ أو يُصَدِّقه عقْل.. كانَ المكَانُ أشْبَهَ بمَغَارَةٍ مِنَ الزُّجاجِ والبَلُّور. كُلُّ شَيْءٍ فيها يَبْرُق وكلُّ شيءٍ مُضِيء. وفي الأسْفَلِ بُحَيْرَةٌ مِنْ سَائِلٍ يَغْلِي ويُخْرِجُ فَقَاقِيعَ مُلْتَهِبَة. وكانَ الاقترابُ مِنْ هذا المكانِ رغْمَ جَمَالِهِ الذي يأخُذُ بالألْبَابِ ويخطَفُ الأبصارَ مَعْنَاهُ مَوْتٌ مُحَقَّق. ولكنْ هُنَاكَ ما يَدْفَعُنِي لدُخُولِ هذا المَكَانِ. فصُخُورُهُ كُلُّها مِنَ المَاسِ الحُرِّ الذي لا يُوجَدُ مِثْلُهُ في العَالَمِ كُلِّه. ولكنْ كَيْفَ الوُصُولُ إلَيْهِ، لا بُدَّ مِنْ طَرِيقَةٍ. أمَّا الآنَ فيجِبُ أن أُحَاوِلَ العَوْدَةَ مِنَ السِّرْدَابِ إلى الكَهْف.



وبَدأْتُ الزَّحْفَ هٰذهِ المرَّةَ بِيَديَّ وقَدَمَيَّ حتى استَطَعْتُ أنْ أصِلَ إلى السُّورِ. وقَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ الحِجَارَةِ ودَخَلْتُ إلى الكَهْفِ لأرَى الجَمِيعَ يَغُطُّونَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ. فَفَعَلْتُ مِثْلَهُم واسْتَلْقَيْتُ عَلَى فِرَاشِي وأسْلَمْتُ نَفْسِي لِلنَّوْمِ.

في الأيامِ التاليةِ بدأتُ أشغَلُ وقْتي بصُنْعِ حَبْلٍ مِنْ ألْيَافِ الأعْشَابِ والنباتاتِ. ولمَّا رآنِي هؤُلاءِ النَّاسُ أفعَلُ ذلكَ بدأوا يفْعَلُونَ مِثْلي حتَّى صارَ لديَّ في النِّهَايَةِ حَبْلٌ طَوِيلٌ ومَتِين. واتَّخَذْتُ قَرَارِي بأنْ أفْعَلَ بِالقَوْمِ ما فَعَلْتُهُ بِهِمْ فِي المَرَّةِ السَّابِقَةِ. فَوَضَعْتُ لَهُمُ المُخَدِّرَ فِي الطَّعَامِ بَعْدَ أنْ فَرَغَ الأطْفَال. ونَامَ الكِبَارُ جَمِيعاً كَالأمْوَاتِ. فأخَذْتُ الحَبْلَ وثَبَّتُّ طَرَفَهُ في إحدى صُخُورِ الحَائِط. وأوثَقْتُ الطَّرَفَ الآخَرَ حَوْلَ وَسَطي. ثُمَّ تخطَّيْتُ سَدَّ الحِجَارَةِ واستَلْقَيْتُ على الأرْضِ وَتَرَكْتُ جَسَدي ينْزَلِقُ إلى أسْفَلِ السِّرْدَابِ وأنَا مُمْسِكٌ الحَبْلَ بكِلْتا يَدَيَّ أتَحَكَّمُ مِنْ خِلاَلِهِ بِسُرْعَةِ اندفاعي حتَّى وصَلْتُ إلى نهايَةِ السِّرْدابِ فتَحَوَّلْتُ بِجَسَدِي إلى حيثُ تلكَ الفَتْحَة وألْقَيْتُ بِنَفْسِي فِيها وصِرْتُ مُعَلقاً بالحَبْلِ الذي في وَسَطي. وحمدتُ اللّهَ على أنَّ الحَبْلَ كانَ مَتِيناً وإلاَّ لَكُنْتُ هَوَيْتُ إلى قاعِ هذهِ البُحَيْرَةِ المُلْتَهِبَة. وأخرجْتُ خِنْجَرِي وجَعَلْتُ أضرِبُ بِهِ بينَ هٰذِهِ الصخورِ الماسيَّةِ وأضَعُ داخِلَ قَمِيصي كلَّ ما أحْصُلُ عليهِ حتَّى أصبَحْتُ ثَقيلَ الوَزْنِ وأصْبَح ضَغْطُ الحَبْلِ عَلَى وَسَطِي شَدِيداً فوضَعْتُ خِنْجَرِي فِي مَكَانِهِ وصِرْتُ أجْذِبُ جَسَدي إلى أعْلى بِكِلتا يَدَي مِنْ خِلاَلِ الحَبْلِ. وكان جهداً مُضْنِياً واستطعْتُ بعدَ تعبٍ ومَشَقَّة أنْ أصِلَ إلى فَتْحَةِ المَغَارَةِ فاستَلْقَيْتُ على أرْضِ السِّرْدَابِ لأسْتَرِيحَ قليلاً مِنَ التعَبِ وأخرَجْت قِطَعاً مِنَ المَاسِ أنْظُرُ إليها فرأَيْتُها تُضِيءُ ظَلاَمَ السِّرْدَاب. وأحسَسْتُ بفَرْحَةٍ غامِرَةٍ لِنَجاحي فِي هٰذِهِ المُغَامَرةِ المُثِيرَةِ ولِحُصُولي عَلى هٰذا المَاسِ النَّادِرِ. وبدأْتُ الزَّحْفَ إلى أعْلى حتَّى وصلْتُ إلى الكَهْفِ وكانَ سكَّانُه لا يزالُونَ نياماً. وفَكَكْتُ الحَبْلَ مِنْ وسَطي وأخرَجْتُ كلَّ ما مَعِي مِنَ المَاسِ ووَضَعْتُه تَحْت حَاشِيَةِ الفِرَاءِ الَّذي

أَنَامُ عليْه وَٱسْتَلْقَيْتُ فَوْق الفِرَاشِ وسَبَحْتُ بأَفْكَارِي بَعيداً جِدّاً. وبَعْدَ أنْ ٱحْتَواني النَّوْمُ شاهَدْتُ فِي أَحْلامي أنّي قَدْ عُدْتُ إلى مَدِينَةِ بغداد وأهْلُ المَدِينة كُلّهُمْ فِي ٱسْتِقْبالي. ولٰكِنّي صَحَوْتُ مِنْ نَومي وأَفَقْتُ مِنْ أحْلامِي لأجِدَني داخِلَ الكَهْفِ وفِي أَسْفَلِ فِرَاشِي كَنْزٌ لا يُقَدَّرُ بِمَال.

مضَتْ عدَّةُ أيّامٍ وأنا أُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةٍ للخُرُوجِ مِنَ الكهْفِ والجزيرةِ كلِّها والعَوْدَةِ إلى بِلادِي. وهَدَاني تَفْكِيرِي فِي النِّهَايَةِ إلى أنْ أصْنَعَ مَرْكَباً صَغِيراً بمُسَاعَدَةِ هؤُلَاءِ النَّاس. وكانَ قَدْ صَارَتْ بَيْني وبَيْنَهُمْ أُلْفَةٌ كَبِيرَةٌ وأصْبَحْتُ أسْتَطِيعُ التَّفَاهُمَ مَعَهُم جَيِّداً بالإشَارَةِ وبِبَعْضِ كَلِمَاتٍ تَعَلَّمُوها مِنّي. وبِمَا أنّي صِرْتُ زَعِيمَهُمْ فَلَنْ يُخَالِفُوا لِي أمْراً. وكانَ كلُّ مَا أرْجُوهُ مِنْهُمْ أنْ يَتْرُكوا حَيَاةَ الكَهْفِ ويَنْزِلُوا مِنْ فَوْقِ الجَبَلِ لِيَعِيشُوا عَلَى أرْضِ الجَزِيرَة. ولكنَّ خَوْفَهُمْ مِنْ وُحُوشِ الجَزِيرَةِ كانَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذلك. ومرةً إثْرَ مَرَّةٍ كُنْتُ أصْحَبُهُمْ إلَى الأرْضِ فنَجْمَعُ مِنْ ثِمَارِهَا وإلى الأَنْهَارِ نَصِيدُ مِنْ أسْماكِها حتّى أصْبَحُوا بَعْدَ ذَلِكَ يَسْعَدُونَ ويَبْتَهِجُونَ كُلَّما نَزَلُوا مِنَ الجَبل.

وٱسْتَطَعْتُ فِي ٱلنِّهَايَةِ أنْ أجعَلَهُم يتْرُكُونَ هٰذَا الكَهْفَ ويَصْطَحِبوا أوْلادَهُمْ ونِسَاءَهُمْ إلى أرْضِ الجَزِيرَةِ بعدما بَنَوْا أكْوَاخاً لَهُمْ تَحْمِيهِمْ مِنْ شَرِّ الوُحُوش. كما صَنَعُوا لِي كوخاً كبيراً صَارَ بِمَثَابَةِ قَصْرِ الحَاكِم. ومِنْ عَجَبٍ أنّهُمْ يقِفُونَ علَى بَابِهِ لِحِرَاسَتِي. وصارَتْ حَيَاتي مَعَهُم عَلَى الجَزِيرَةِ هَانِئَةً. وٱكتَشَفْتُ أنّهُم قومٌ طيِّبونَ وإنْ دَلَّ مَظْهَرُهُمْ على غَيْرِ ذلك. بلْ إني أخَذْتُ أمِيلُ للْحَيَاةِ مَعَهُمْ إلى الأَبَدِ بَعِيداً عَنِ الدُّنْيا البَعِيدَةِ وغَدْرِ أهْلِها. ولٰكِنْ فِي بعضِ الأحيانِ أجِدُ عندي شَوْقاً إلى بِلَادِي وأحِنُّ إلى مَدِينَتِي.

وفِي يَومٍ مِنَ الأيّامِ رأيْتُهُمْ يُقْبِلُونَ إلى الكُوخِ وهُمْ يصْرُخُونَ ويُلَوِّحُونَ بأيْدِيهِمْ إلى نَاحِيَةِ البَحْرِ فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ وجَرَيْتُ إلى الشَّاطِىءِ لأرَى مَرْكباً كبيراً ألقى مِرْسَاتَهُ



بعيداً عنِ الشَّاطِىءِ ويَبْدُو أنَّ أهْلَهُ وقَفُوا يرقبُونَ مِنْ بعيدٍ وهُمْ خائِفُونَ أنْ يَتقدَّموا. وكانَتْ فرْحَتي غامِرَةً وسَعَادَتي بالِغَةً لِرُؤْيَتِها. فأشَرْتُ لِمَنْ مَعِي ألاَّ يَخافُوا وألاَّ يَنْزَعِجوا. وأخبَرْتُهُمْ بأنَّهُمْ أهْلِي وعَشِيرَتي جاؤُوا بِزِيارَتي. وعَلَيْهِمْ أنْ يَقومُوا بِواجِبِ ضِيافَتِهِمْ. ثُمَّ أخذْتُ أُلوِّحُ بِيَدِي لِرُكَّابِ المرْكَبِ وأُنادي عليهِمْ أنْ يَتقَدَّموا. وما هِيَ إلا بُرْهَةٌ حتَّى رأيتهمْ يُدْلونَ بقارَبٍ إلى المَاءِ ونَزَلَ فِيهِ بعضٌ مِنْهُم وأخذُوا يُجذِّفُونَ إلى الشَّاطِىءِ. ولَمْ أنْتظِرْ حتَى يَصِلُوا إلَيْهِ. بلِ اندَفَعْتُ إلى الماءِ واتَّجَهْتُ إلَيْهِمْ وألْقَيْتُ بِنَفْسِي داخِلَ القَارَبِ وأخَذْتُ أحْتَضِنُهُمْ وأنا أقولُ: مَرْحباً بِكُمْ فِي جَزِيرَتي. بَيْنما كانُوا هُمْ مَشْدُوهِينَ أمامي. ثُمَّ سألْتُهُمْ مِنْ أيِّ البِلادِ أنْتُمْ. فَقالُوا بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ: «نَحْنُ مِنْ أهلِ الشام». إنْتابَتْنِي فَرْحَةٌ غامِرَةٌ وقلتُ مِنْ أيِّ بلادِ الشامِ أنْتُمْ. فقالوا: «مِنَ اللاذِقِيَةِ». فقلْتُ: «أهلاً بِكُمْ مِنْ جِيرانٍ أحْبابٍ. وعَرَبٍ شُجْعَانٍ. أنا مِنْ بَغْدادٍ». فقَالُوا: «أهلاً بك». وكانَ بعضُ الأقزامِ قَدْ تَجَمَّعَ حَوْلَنا فَرآهُمْ رُكّابُ القَارَبِ وتَوَجَّسُوا مِنْهم خَوْفاً. لَكِنِّي طَمأنْتُهُمْ وأخبَرْتُهُمْ بأنَّهمْ قَوْمٌ مُسالِمُونَ. ووقَفُوا بعدَ ذلكَ على الشاطىءِ وأشارُوا إلى مَنْ في المَرْكَبِ بإشاراتٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْها فاقْتَرَبُوا مِنَ الشَّاطِىءِ وألْقَوْا المِرْساةَ ونَزَلُوا إلى البَرِّ جميعاً وبَدأ التَّعارُفُ بَيْني وبَيْنَهُم ثُمَّ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الأقْزامِ. ونَزَلَ الجَميعُ ضُيُوفاً على الجَزيرَةِ يَتَمَتَّعُونَ بكرَمِ الضِّيافَةِ وأخبَرْتُهُم بأنِّي رَاحِلٌ مَعَهُمْ فرَحَّبُوا بِي. وطلبْتُ مِنْ رُبَّانِ المرْكَبِ أنْ يكونَ رَحيلُنا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هؤلاءِ القَوْمِ أصْحابِ الجَزيرَةِ الَّذِينَ جَعَلُوني زَعِيماً عَلَيْهِمْ. ولَنْ يَكُونَ رَحِيلِي هَيِّناً بالنسبَةِ لَهُمْ. فَوافَقَ الرَّجُلُ وقالَ لِي: - كُنْ جاهِزاً بأحْمالِكَ فِي خلالِ ثَلاثَةِ أيَّامٍ. فقلْتُ لَيْسَ مَعِي مِنَ الأحْمالِ إلاَّ خُرْجٌ كَبِيرٌ.

وفي الأيامِ الثلاثَةِ كانَ البحَّارَةُ يحمِلُونَ إلى المَرْكَبِ كلَّ ما يَلْزَمُ مِنْ زَادٍ حتَّى اكْتَمَلَتْ. وفي الليلِ والقَوْمُ نِيامٌ تَسَلَّلْنا مِنَ الجَزيرَةِ مَعَ ضَوْءِ القَمَرِ إلى سَطْحِ المَرْكَبِ ورَفَعْنا المِرْساةَ ونَشَروا الشِّراعَ فامْتَلأَ بالهَواءِ ودَفَعَ بالسَّفِينَةِ إلى عُرْضِ البَحْرِ. ولاحَتْ

مِنّي اِلتفاتَةٌ إلى الخَلْفِ فَسالَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيَّ حُزْناً على فِراقِ هؤلاءِ القَوْمِ الطَّيِّبين. ولَوْلا شَوْقي إلى بِلادي وحَنيني إلى أوْطاني لَما تَرَكْتُهُمْ أبداً.

مضى المَرْكَبُ في طَريقه تَدْفَعُهُ رِياحٌ طيِّبَةٌ وعِنايَةُ اللّهِ تَحْرُسُهُ حتّى وَصَلَ إلى شاطِىءِ اللاذِقِيَّةِ بَعْدَ أرْبَعَةِ أشهر وعِدَّةِ أيّام. وهناكَ طَلَبْتُ مِنَ الرُّبّانِ أنْ يَتَّجِهَ بِي وَحْدي إلى مَدينَةِ البَصْرَةِ وأعْطَيْتُهُ ماسَةً كبيرةً مِنَ الّتي مَعِي فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِها وصارَ يَشْكُرُني ويَدْعُو لِي. وأمَرَ البحارَةَ بألّا يغادِرَ أحدٌ مِنْهُمُ السَّفينَة.

وما أن أتى مَساءُ اليومِ حتّى كُنّا في طَريقِنا إلى شاطِىءِ البَصْرةِ فَوَصَلْناها بَعْدَ يَوْمَيْنِ اثْنَيْن. ومنْ هُناكَ أخَذْتُ قافِلَةً توجَّهْتُ بِها إلى مَدينَةِ بَغْداد وذَهَبْتُ مِنْ فَوْري إلى السُّوق حَيْثُ مَتْجَري فالتَفَّ النّاسُ حَوْلي وأسْرَعَ إليَّ عُمّالي يهنِّئونَني بِسَلامَةِ الوُصُول. ثُم تَوَجَّهْتُ إلى قَصْري لأسْتَريحَ مِنْ عَناءِ السَّفَر.

وفي المَساءِ كانَ القَصْرُ كُلُّهُ في حَالَةٍ مِنَ الفَرْحَةِ والبَهْجَةِ فَقَدْ جاءَ النّاسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ يُهَنِّئونَنِي وَزادَتْ بَهْجَتي بِوُصولِ الخَليفَةِ الّذي أتى بنَفْسِهِ وحيّاني وسَمِعَ مِنّي كلَّ ما جَرى. وقَبْلَ أنْ يُوَدِّعَني قالَ لي: ـ لقد رُزِقْتُ بِوَلِيِّ العَهْدِ وسَتَكُونُ بِمَثابَةِ الجَدِّ لِهذا المَوْلُودِ الجَديد. فقلتُ لَهُ: ـ يا مَوْلايَ بارَكَ اللّهُ لكَ فيهِ وجَعَلَ مَوْلِدَهُ مَوْلِدَ السَّعْدِ لَكُمْ ولِبَلَدِنا الحَبيب.

وهكَذا كانَتْ يا إخْواني رِحْلَتِي السّادِسَةَ وما صادَفْتُهُ فيها. وعُدْتُ مِنْها بكَنْزٍ أضَفْتُهُ إلى بَقِيَّةِ مالي بَعْدَ أنْ تَصَدَّقْتُ بالكَثيرِ عَلى الفُقَراءِ والمَساكِينِ وكافَأْتُ عُمّالي. وطابَتْ لِي الحَياةُ بِعَوْدَتي إلى مَدينَتي.

فإلى لِقاءٍ آخر.



١	لماذا قرر «السندباد البحري» السفر؟.
٢	لماذا كان رُبّان السفينة غير قادر على السفر؟ كيف حُلّتْ مشكلته؟.
٣	كيف تحوّلت ملكيّة السفينة إلى السندباد؟.
٤	ماذا حلّ بربان السفينة في الطريق؟ وما هو سر الصندوق الذي تركه له؟.
٥	ما الذي فعله البحّارةُ بالسندباد؟ كيف وصل إلى الشاطىء؟.
٦	كيف تخلّص السندباد من القطّ المتوحّش؟.
٧	هل تمكن السندباد من تسلّق الجبل بسهولة؟ ما الذي أخافه؟ وهل تمكن من التغلب على تلك المخلوقات؟.
٨	هل بقيت العداوة قائمة بين السندباد وتلك المخلوقات؟ ما الذي حصل؟.
٩	ما هي الخطة التي اتبعها السندباد للدخول إلى السرداب المحاذي للمنارة؟ هل نجح في ذلك؟.
١٠	كيف تمكن السندباد من الحصول على الماس؟.
١١	لماذا شرع السندباد في بناء المركب؟ ومن ساعده في ذلك؟.
١٢	كيف تمكن السندباد من الخروج من الجزيرة؟ ولماذا لم يُخبر تلك المخلوقات بعزمه على السفر؟.

قاموس الألفاظ

أ

آثر: فضّل.

أتشبّث: أتعلّق.

أتقي بها: أحتمي بها.

أرُبّت: أضربُ بلطف.

أسنّة: مفردها سنان وهو نصل الرمح.

أضمرتُ: أخفيتُ.

الأدغال: الأشجار الكثيرة والملتفة.

الإعياء: التعب الشديد.

الألباب: العقولَ.

ألفة: صداقة ومؤانسة.

أمعنتُ النظر: حدّقتُ.

أوصالي: أعضائي

ت

تدانيها: تقاربها.

التائه: الضائع.

خ

خلتُها: ظننتُها.

ر

ركله: ضربه برجله.

س

سبات: نوم

ع

عامرة: مليئة.

ف

فرغوا: انتهوا.

فضول: حشرية.

م

متيقظاً: حذراً.

محقّق: مؤكد.

مروءة: نخوة.

مكثنا: بقينا.

المذعورة: الخائفة.

الملائم: المناسب.

ن

النادر: القليل الوجود.

و

وعول: مفردها وعل وهو تيس الجبل.

ي

يأبه: يهتم.

يحتضر: ينازع.

ينشد: يطلب.



رحلات السندباد

الدار النموذجية للطباعة والنشر

صيدا - بيروت

